أحاديث منتصف الليل

الناشـــــــــــــر: دار الرشـــاد

العنــــــــــوان: ١٤ شارع جواد حسنى - القاهرة

تليفــــــــكس : ٢٣٩٣٤٦٠٥

بـــريد إلكـــترونى : Dar_ alrashad@hotmail.com

رقـــم الإيـــــداع : ١٩٩٢/١٠٤٩٧

الترقيم الدولــــى : 977-5324-03-3

جمــــع وتنسيق : محمد أبو المعاطى

الطبــــــــــع : عربية للطباعة والنشر

العنـــــــوان : ٧ ، ١٠ ش السلام - أرض اللواء - المهندسين

تليفـــــــــــون: ٣٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٣٢٥١٠٤٣

الطبعـــة الثانية : ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م (الأولى للدار)

الطبعـــة الثالثة : ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م (الثانية للدار)

الغـلاف للفنـان : عبادة الزهيرى

مراجعة لغوية وهوامش : محمد دياب

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الدكتور / حسين مؤنس

أحاديث منتصف الليل

دار الرشاد

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

هذا كتاب كتبته على قطعٍ كما يرى القارئ ، وكل قطعة عبارة عن قصة صغيرة أو مقالة ذات مغزًى كبير ، ولقد لَقيتْ قبولاً عندما نُشِرتْ أول مرة فى هذا الكتاب ، ثم مضت السنون وطال زمان انتظار الكتاب لإعادة الطبع ، وأنا شخصيًّا مسئول عما أكتب عندما أكتبه ، ولكن عندما يمر الوقت - والكتاب ينتظر - تتزاحم الأفكار على ذهنى ، وتجدُّ أفكار جديدة أكتب عليها قصصاً أو مقالات جديدة ؛ ومن هذه المشاكل مشكلة هذا الكتاب ، وقد رغبتُ منذ زمن طويل فى أن أحتفظ إلى جانبى فى طرافة كتبى بالمقالات والقصص ليكون شيئاً جديدًا فى الأدب العربى ؛ مثل اتحاد الأفكار فى الأقاصيص واشتراكها فى المغزى (أقصد مستوى المغزى) لأن الكتب التى تطبع عندنا فى مصر كثيرة جدًّا ، وأريد أن أُتحف القارئ بشىءٍ جديد لم يقرأه من قبل ، حتى تفضَّل الأستاذ عصام رشاد بنشره وجعله فى الصورة التى يراها القارئ الآن ، وأرجو أن يسعد القارئ به ، وعلى أى الأحوال فلا أريد أن أطيل فى التقديم حتى لا يملَّ القارئ ، وها هو ذا الكتاب بين يدى القارئ ، وأرجو أن يسعد به إن شاء الله .

دكتور / حسين مؤنس

بين يدى هذا الكتاب

من أقوال مونتسكيو فى كتابه المعروف «خطابات فارسية» أن التاريخ يُرسم فى الليل ويُنفَّذ بالنهار ...

والعبارة لطيفة وإن كانت غير ذات عمق كبير ...

لأن المعروف أن الخطط والتدبيرات والمشروعات والمؤامرات ترتسم فى أذهان أصحابها فى هدوء الليل لتنفَّذ فى ضوء النهار ..

ومما يحكيه على مبارك فى «الخطط التوفيقية» ، أَنَّ محمد على لم ينم أسبوعاً كاملاً قبل تنفيذ مؤامرة المماليك ، وحَكَت يول ماى إحدى نساء «جنكيز خان» أن هذا الرجل كان لا ينام إلا ثلاث ساعات بعد الظهر من كل يوم ، أما بقية الليل فكان يقضيه جالساً فى فراشه يفكر ...

ومن كلمات نابليون : إننى أكسب معاركى بالليل .

والحق أن كثيراً جدًّا من أحداث التاريخ صُنع فعلًا فى الليل . كانت تلك هى القاعدة فى الماضى ، عندما كان الذين يصنعون التاريخ جبابرة يخدمون أنفسهم دون نظر إلى صالح وطن ، أو قواعد أخلاق . فى الليل يجلسون مع أنصارهم وندمائهم ويقررون ما يريدون ، وفى الصباح يفاجأ

الناس بالحوادث دون أن يفهموها .. ليس من المهم أن يفهموها ، بل كان من الخطر أن يحاولوا فهمها ، لأن الرعية كانت فى نظر الحكام قطيعاً من الغنم ، والغنم تُساق بالعصا ولا تمسك العصا أبداً .

كان هذا فى الماضى ، وتغيَّر الحال اليوم .. لم تعد الأمور تُدبَّر بالليل فى اجتماع بين الحاكم وندمائه ، وإنما أصبحت تناقش فى اجتماعات منظمة علنية فى مجالس التمثيل السياسى ، لهذا لم نعد نفاجأ بالانقلابات والقرارات التى لا يفهمها إلا الذين اتخذوها .

استوقفتْ مسألة «صنع التاريخ بالليل» هذه انتباهى أثناء مطالعاتى فى كتب التاريخ ، فتبينتُ إلى جانب ذلك أن الكثير من وقائع التاريخ الكبرى تمت بالليل ، لأن سواد الليل يخفى الحقيقة . ليس من الضرورى أن يكون الحادث سيِّئاً ، بل فى أحيان كثيرة يكون الحادث سعيداً ؛ فمثلاً : اجتماع العقبة الثانية الذى تم فيه الاتفاق بين أهل يثرب والرسول ﷺ على أن ينتقل إليهم تم فى منتصف الليل . وخروج الرسول ﷺ للهجرة المباركة تم فى الهزيع الأخير من الليل . وقرار صلاح الدين بدخول معركة حطين تم بالليل . كانت المناوشات مستمرة قبل ذلك بين المجاهدين المسلمين (المطوَّعة) وقوات الصليبيين ، وعندما رأى صلاح الدين أن الصليبيين تراجعوا إلى سهل حطين الخالى تماماً من الماء قرر الهجوم فى الصباح ، وفعل ، وكان النصر العظيم .

* * *

لهذا جعلتُ دأبى منذُ زمن طويل أن أدوِّن فى دفاترى كل ما يمر بى

من أحداث وقعت فى منتصف الليل أو قربه ، واجتمعت لى من ذلك طائفة كبيرة قمت بتدوينها باختصار ، ثم مضيتُ أُراجعها وأَسْتَقْصِى تفاصيلها حتى صارت مجموعة طريفة سجِّلتْ بعضها فى حلقات فى إذاعة الكويت ، ووجدتُ الناس قد رحبوا بها واهتموا بها ، فعدتُ على الأحاديث واستكملتُها ملتزماً نفس الإيجاز ، وها هى بين يدى القراء .

وقد تخيَّرتُ من هذه الحوادث تلك التى كان لها فى التاريخ أثرٌ بعيد ، ولم أقفْ طويلاً عند جرائم الليل التى تنجلى عن زوال سلطان جائر ومجىء سلطان أشدَّ جَوْراً ، ولا أنا وقفتُ عند تدبيرات نساء القصور بعضهن على بعض لتفوز واحدة منهن بقلب السلطان وتضمن العرش لابنها ، أو عند حادث عدوان سلطان على وزيره وقتله فى ظلام الليل ، وغير ذلك مما تزدحم به كتب التاريخ ، ولو أننى اهتممت بذلك لصار الكتاب أضعاف حجمه ولفقد قيمته كوثيقة تاريخية .

* * *

ولقد قرأت بعد ذلك حكايات أخرى ذات طرافة لم يتسع الوقت لإدخالها فى هذا المجموع ، ومن ذلك حديث جاريةٍ ذات حيلة وذكاء من جوارى الخليفة عبد الرحمن الناصر قرأتها فى «مقتبس» ابن حيَّان .

والقصة تتلخص فى أن عبد الرحمن الناصر كانت له زوجة من البيت الأموى تسمى بالقرشية ، وكان قد قسَّم لياليه - كما كانت عادة تلك العصور - بين جواريه ، لكل واحدة منهن ليلة فيما عدا القرشية زوجته الحرة .. فكان يستريح إليها معظم لياليه .

وكانت العادة فى تلك العصور أن يتخذ السلطان بعد عصر كل يوم القرار الخاص بالجارية التى سيكون عندها فى ليلته . كانت تأتيه القهرمانة - رئيسة الجوارى - وتعرض عليه مقترحاتها ، وفى ذات يوم قرر الناصر أن يكون مبيته عند القرشية ، وأمر القهرمانة بأن تتخذ العُدَّة لذلك . وسمعت بالأمر جارية جليقية الأصل (من شمال غرب إسبانيا) ذات حسن فائق ، فذهبت إلى القرشية وقالت : أتبيعيننى ليلتك هذه بألف دينار ؟ قالتها فى أسلوب هازل كأنها تداعب صاحبتها ، وحسبت القرشية أن الأمر هزل أو دعابة نساء ، فوافقت وقبضت المال ، وتنازلت عن ليلتها وضحكت وضحكت معها الجوارى ..

وذهبت الجليقية الماكرة إلى مخدعها ، وازَّيَّنتْ على أحسن ما تكون زينة النساء ، وانتظرت حتى إذا ما فرغ الناصر من أعماله وصلى العشاء الآخرة ، وانصرف ندماؤه ، وأخذ طريقه إلى دار الحريم قاصداً جناح القرشية . فبينما هو فى بعض الدهاليز لقيته الجليقية فى أحسن زينتها وقصَّت عليه أمر الاتفاق وقالت له إنه ضيفها الليلة ..

وغضب الناصر غضباً شديداً ، ولكنه كعادته كظم غيظه وسار حتى صار فى مخدع الجليقية . فلما اطمأن به المجلس استوضح الأمر ، ثم بعث إلى القرشية واستجلاها الخبر ، فقصَّت عليه الأمر على أنه دعابة نساء ، فصمت قليلاً ، ثم قال ما معناه أنها تبيع مولاها بألف دينار . وكان على حق فى ذلك ؛ لأن ساعاته التى يقضيها معها لا تُقدَّر بمال ، ثم أقسم ألا يزورها بعد ذلك أبداً . وخرجت القرشية مقهورة مهزومة وقد أدركت سوء

ما فعلت ، وسعدت الجليقية بحسن حيلتها ومهارة تدبيرها وفهمها لطبيعة الناصر وشخصيته ، ومع أن القرشية كانت أم أولاده الكبار إلا أنها فقدت مركزها بعد ذلك ، وعاشت بعد ذلك حزينة مقهورة .

وقد قرأتُ مثل ذلك فى قصة مدام بومبادور عشيقة لويس الخامس عشر ، فرأيت أن ظلم الرجال للنساء فى العصور القديمة والوسطى كان قد أفقدهن الكثير من الشعور بالكرامة ، وأن حياتهن كانت حرباً لا هوادة فيها للفوز برضا الرجل أو صاحب السلطان .. وربما كُنَّ على حق فى ذلك ؛ فقد كان المجتمع – فى الشرق والغرب – قد هبط بقدر الإنسان بصورة عامة إلى مستوى سحيق ، وكان نصيب المرأة من الظلم أوفر من نصيب الرجل . نعم إن الإسلام أعطى المرأة كل حقوقها ، ولكن عصور الظلم سلبت الناس جميعاً حقوقهم ، فضاعت حقوق الرجال وحقوق النساء جميعاً ، وأصبحت الحياة أشبه بالوجود فى سَفَطٍ [1] ملىءٍ بالحيَّات ، كل منها تغالب لكى تخرج برأسها إلى الهواء حتى لا تختنق .. حتى السلاطين أنفسهم كانوا فى نفس السَّفَط .. ألم تكن لكل سلطان مملوكى أو عثمانى عشرات من المخادع للنوم ؟ فإذا جاء الليل ذهب إلى من تقع عليها القرعة ، وأعلنت كل جارية أنه عندها فيحتار المدبِّرون عليه ولا يعرفون أين يكون . وفى تلك الحالات كانت مقاتل السلاطين تتم فى الفجر ؛ عندما يخرج السلطان لصلاة الفجر ، وفى أحد الدهاليز ينتظره الموت فى هيئة قاتل صامت بيده سكين الموت . وقد حدث مرة أن سلطاناً قُتل بتدبير الوزراء فى الفجر ، واختار المتآمرون السلطان

١- سَفَط : وعاء مصنوع من أغصان الشجر توضع فيه الفاكهة وغيرها .

الجديد ، ومضى هذا فصلَّى الفجر ، ودماء صاحبه على يديه . وفى الصباح أعلن الوزراء أن السلطان المأسوف عليه باغتته المنيَّة وهو يصلى العشاء فغادر الدنيا مبروراً مرضيًّا عنه ، وأنه مضى إلى جنة الخلد - فى الوقت الذى كانت جثته ، فى الحقيقة ، موضوعة فى كيس أُلقِىَ به فى جُبٍّ ماءٍ سحيق - .

* * *

وبعد ، فإن أحاديث الليل طويلة عجيبة لا يدركها الحصر ، وقد جمعنا هنا بعضها مما له أثر فى مجرى التاريخ ، وحاولت صياغته فى أحاديث قصار خوفَ الإملال . ولكن كل قصة منها تصلح أن تكون موضوعاً لرواية طويلة . وإن الإنسان ليتساءل وهو يقرأ هذه الحكايات : لماذا أودع الله فى الإنسان كل هذا الشر ؟ .. لقد خلق الله الليل أمناً وسكناً وراحةً وسلاماً واستحبَّ فيه العبادة وقيام الليل ، فيأبى الإنسان إلا أن يجعله غطاءً للأذى ومجالاً للتدبير الغادر الشرير ..

إن الحيوان كله لا يأمن إلا فى الليل ، والطيور تَقرُّ فى أوكارها بالليل ، وتضع رءوسها تحت أجنحتها وتنام ، أما الإنسان فيُغمضُ عينيه ، ثم يمضى يُدبِّر ويرسم الخطط ويرسم مصارع الناس .. وسبحان مَنْ جمع تحت إهاب الإنسان الخير والشر جنباً إلى جنب .

وإلى هنا أتركك مع أحاديث منتصف الليل لتستمتع بها إذا شئت ، ولتبحث عن غيرها مما يماثلها فيما تقرأ من صحائف التاريخ .

دكتور / حسين مؤنس

آخر يوم فى
حياة أحمد شوقى

فى الساعة السادسة من صباح الثالث عشر من أكتوبر ١٩٣٢م صحا الشاعر أحمد شوقى مبكراً على غير عادته . كان يستيقظ فى العادة فيما بين الثامنة والثامنة والنصف ، ثم يغتسل ويتوضأ ويصلِّى ، ثم يذهب إلى الفيراندا الجميلة فى داره الأنيقة المعروفة بكَرْمَةِ ابن هانئ فى الجيزة ، وهناك يتناول إفطارَهُ ويقرأُ الصحف ويستقبل أصحابه الذين كانوا يلازمونه كل يوم : أنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام ، والدكتور محجوب ثابت ، والمغنِّى محمد عبد الوهاب ، ومن إليهم ..

ولكنه فى هذا اليوم صحا وهو يشعر أنه على غير ما عرف نفسه ، فقد كان يحسُّ طنيناً فى أذنيه وهبوطاً فى قواه ، فتعازم ونهض واغتسل وصلَّى ، ثم طلب إلى أهله أن يصلوه بصديقه الدكتور سليمان عزمى باشا كبير أطباء الباطن فى مصر فى تلك الأيام ، وكان يسكن إلى جواره ، فما لبث الرجل أن أتاه وفحصه فحصاً دقيقاً ، ثم قال له وهو يبتسم : ارتفاع خفيف فى الضغط ، ولكن حالة السُّكَّر أحسن ، لا تُوهِمْ نفسك يا أخى .. لن أكتب لك دواءً ، وإنما أرجوك أن تخرج من بيتك على عادتك ، وتنسى هذا الذى تشكوه ، وسأتصل بك بالتليفون بعد الظهر .

وكان أحمد شوقى كثير الأوهام فيما يتصل بصحته ، لا عن ولع شديدٍ بالحياة ، بل لأنه كان رجلاً مترفاً لا يطيق أدنى ألم . كان فى الثالثة والستين ولكنه كان يمشى مِشْيَةَ رَجلٍ فى السبعين فما فوقها ، لا عن ضَعْفٍ وشَيَخ[1]، بل لأن تربيته التى نشأ عليها أفهمته أن التُّؤدَةَ فى السير والأناة فى الكلام من خصائص السادة وأهل المعالى ، فقد كان يمشى هذه المِشية وهو فى السادسة عشرة من عمره عندما دخل مدرسة الحقوق فى القاهرة ، وهكذا وصفه شيخ العروبة أحمد زكى باشا ، وكان زميله فى الدراسة فى هذه المدرسة .

ولهذا فقد ازدادت أوهامه فى ذلك اليوم ، وظل يرقب نفسه كأنه لا يصدق ما قاله الطبيب . ذهب مع أصحابه إلى منتداهم اليومى فى مقهى صولت فى القاهرة ، وقضى الصباح فى سمرٍ معهم ، وعاد إلى بيته مع الظهر وأَحسَّ أنه قد تحسن كثيراً ، واستراح قليلاً ، ولكنه كان يحس بقلق ، فنهض ليراجع بعض الأشعار الجديدة ، ثم اتصل به طبيبه بالتليفون يسأله عن صحته فطمأنه ، ثم جلس إلى مكتبه وقرأ طويلاً ، ولكنه أحس بالتعب يعود إليه مع المساء فأوى إلى فراشه .

وهنا - وقرابة غروب الشمس - زاره الشاعر عبد الرحمن صدقى ، وهو صاحب هذا الخبر الذى نوجزه عن آخر أيام الشاعر أحمد شوقى . كان عبد الرحمن صدقى - إذ ذاك - أديباً وشاعراً شابًا يتلمس طريقه إلى الشهرة وبُعْد الصيت ، وكان معروفاً بانتمائه إلى العقاد ، ولكن شوقى هشَّ لِـمَقْدَمِهِ فقد كان - كما قال عبد الرحمن فيما بعد - فى حاجة إلى أنيس من أهل الشعر والأدب يتحدث إليه..

١- شَيَخ : شيخوخة .

طلب إليه شوقى أن يقرأ عليه الهمزية فى مدح الرسول ﷺ ، فتناول عبد الرحمن الديوان وقرأ :

وُلِدَ الهُـدَى فالكَائِنَاتُ ضِياءُ

وَفَـمُ الزَّمَـانِ تَبَسُّـمٌ وثَنَـاءُ

ومضى يقرأ ؛ وإذا بالدموع تنهلُّ وتسيل على وجه الشاعر المريض ، وأراد عبد الرحمن أن يتوقف فرجاه أن يستمر ، فاستمر يقرأ والشاعر مرسل بصره إلى السقف وهو يصغى فى انتباه شديد كأنه ليس ناظم الهمزية ، فلما فرغت القراءة ساد صمت عميق .. ثم قال شوقى :

- ألا ترى أنها أجمل من همزية البوصيرى ؟

- أنا شخصيًّا أرى أنها تفوقها بمراحل ..

فبدت السعادة على وجه شوقى ، وطلب فنجاناً من الشاى ، واعتدل فى جلسته وقال لعبد الرحمن : اقرأ علينا البردة ..

فقلَّب الصفحات فى الديوان وقرأ :

رِيمٌ عَلى القَاعِ بَيْنَ البَانِ والعَلَمِ

أحلَّ سَفْكَ دَمِى فى الأَشْهُرِ الحُرُمِ

ومضى يقرأ ، وازداد الشاعر بِشْراً ، وبَدا وكأنه يستعيد صحته ، وأخذ بأطراف الأحاديث مع الشاعر الشاب ، وعندما أتى الشيخ سليم البشرى - وكان شيخ الأزهر إذ ذاك - استأذن عبد الرحمن صدقى وانصرف ..

* * *

أوى الشاعر إلى فِراشه فى العاشرة ليلاً ، وناولوه وجبته اليومية من الدواء فأخذها ، وبدا عليه أنه فى تمام الصحة والعافية ، فتركه أهله وأطفأوا النور ، ومضى كل منهم لفراشه ..

وبعد منتصف الليل بقليل سمع أهلُ البيت جرسَ الاستنجاد ، الذى كان مُرَكَّباً إلى جوار سرير شوقى فأهطعوا [1] إليه . كان آخر عظماء شعراء العربية يتنفس فى صعوبة وقد وضع يديه على صدره ، كان يتألم ألماً شديداً ..

واتصلوا بطبيبه فأتى بعد نصف ساعة ، ثم أقبل سليمان عزمى باشا ونَفَرٌ من الأطباء الآخرين ، وحاولوا إسعافه . وحوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل أسلم الشاعر العظيم روحه إلى بارئها ..

وأوقفت «الأهرام» مطابعها ؛ لتستوعب الخبر وتضعه فى صفحتها الأولى .. وصدرت جريدة الأهرام فى يوم ١٤ أكتوبر ١٩٣٢م بنبأ اهتزَّ له عالم العروبة كله اهتزازاً عنيفاً ، نبأ وفاة أحمد شوقى آخر الفحول من شعراء العروبة .

١- أهطعوا: أسرعوا.

خيانة أبى البسام

فى يوم الأربعاء (الرابع عشر من رمضان سنة اثنتين ومائتين من الهجرة/ ٢٧ مارس ٨١٧م) وقع فى قرطبة حادث مشهور فى تاريخ الأندلس كله ، وهو هيج الربض ، والهيج هو ما نسميه نحن اليوم بالثورة الشعبية على الحاكم ، أما الربض فهو الضاحية ، والمراد هنا الضاحية الجنوبية لقرطبة ، وكانت تسمى «شقندة» ..

وجدير بالذكر أن أهل الأندلس كانوا لا يطلقون لفظ المدينة إلا على قلب العاصمة قرطبة ، أى : المسجد الجامع وما حوله من الأسواق ، وقصر الخلافة وما حوله من قصور الوزراء ورجال الدولة وسروات الناس ، أما بقية أحياء المدينة فكانت تسمى أرباضاً ، أى : ضواحى ..

ويقع ربض شقندة على الضفة اليسرى لنهر الوادى الكبير ، وهو فى الحقيقة الضفة الجنوبية ، أما بقية البلد فتقع على الضفة اليمنى وهى الشمالية ، وتمتد بين الاثنتين قنطرة الوادى ، وهى قنطرة حجرية تقوم على أرجل ، أنشأها الرومان ثم جدَّدها المسلمون مراراً .

وكان عامة سكان هذا الربض الجنوبى من العمال والصناع وصغار التجار وطلاب العلم وصغار الفقهاء .. وقد وقع هذا الهيج فى أيام

الحَكَم بن هشام ثالث أمراء الأندلس من بيت عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل ، وكان مكروهاً من أهل قرطبة ، وخاصة العامة وأهل الفقه والدين ، لأنه عندما تولى الأمر فى (صفر سنة ١٨٠هـ) كان شابًّا فى السادسة والعشرين من عمره ، وقد مهَّد له الأمر جده عبد الرحمن الداخل ثم أبوه هشام ، فَوَرِثَ قُطْراً واسعاً غنيًّا رَخِيَّ الحال كثير الخيرات والجبايات ، يعتمد السلطان فيه على قوة عسكرية وافرة العدة والعدد حسنة التدريب يقودها قُوَّادٌ عظام ذوو إخلاص وخبرة ، فمضى يستمتع بلذات العيش غير عابئ بالناس ومشاعرهم ، فأخلد للراحات وصار يقضى معظم وقته فى الصيد والعبث مع ندمائه غير عالم أنه يحكم شعباً عنيداً قوىَّ المراس لا تُؤمَن غدراته .. هو شعب الأندلس .

واستطال «الحكم» على الناس واستهان بهم ، فإذا بهم يردُّون له الصاع صاعين ، فيطوفون بقصره وهم يصيحون : الصلاةَ يا مخمور ..

وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا يتجمعون له وهو خارج للصيد أو عائد منه ويسبُّونه ويصفِّقون عليه ، وكان التصفيق بالأيدى فى تلك الأيام دليل استهزاء - لا شارة إعجاب كما هو الحال فى أيامنا - .

ووقعت بين «الحكم» ورعيَّته مصادمات عنيفة لجأ فيها إلى القسوة البالغة حتى إنه صلب من أهل قرطبة اثنين وسبعين رجلاً فى يوم واحد ، وعلَّق جثثهم على سور المدينة ، ولكنهم لم يتزعزعوا ولا تهيَّبوه ..

وأخيراً وقع هذا الهيج الخطير ، فسارت الألوف من أهل الربض الجنوبى نحو القصر لتنزع الجبار من عرشه ، واقتحموا عليه القصر وكادوا

يظفرون به ، وكان يتزعمهم نفر من كبار الفقهاء من أمثال يحيى بن يحيى الليثى ، وطالوت بن عبد الجبار ، ولولا مهارة قُوَّادِهِ وقسوتهم لبلغوا من الأمر ما يريدون ، ولكن أولئك القادة عرفوا كيف يكسرون ظهر الثورة ويَنْقَضُّون على رجالها ، يقتلون ويسفكون بكل قسوة حتى تشتَّت الناس . وحَلَفَ «الحكم» بعد ذلك لَيَهدمنَّ ذلك الربض جميعه ويشرِّد أهله ويجعل أرضه أرض حرث وزرع ، وقد كان ؛ ونفى أهل الربض عن قرطبة وكان لهم بعد ذلك تاريخ طويل ..

واستخفى كبار الفقهاء بعد فشل الهيج .. لجأ كل منهم إلى مكان يتوارى فيه حتى يقضى الله ما يريد ، فاستخفى طالوت بن عبد الجبار عند رجل يهودى من أهل ثقته لحو العام ، ثم بدا له أن يلجأ إلى صديقه الوزير أبى البسَّام كاتب الأمير الأثير عنده ، فانتقل إلى داره فى الليل واستأمنه على نفسه وترامى عليه راجياً إياه أن يأخذ له أماناً من الأمير ، فوعده خيراً وقد أضمر السوء ..

وكان الوقت رمضان ، فذهب أبو البسَّام إلى الأمير بعد العشاء الآخرة وطلب مقابلته ، فأذن له ، فقال له : ما رَأْىُ الأمير - حرسه الله - فى كبش سمين ؟

فقال الأمير : وأىُّ كبش هذا ؟

قال : طالوت بن عبد الجبار عدو الله ، إنه عندى ، لجأ إلىَّ فرأيت أن أتقدم برأسه إلى الأمير - أبقاه الله - .

فقال : ائتنى به الساعة .

فلما مَثَلَ بين يديه عاتبه الأمير ووبّـخه ؛ فاعتذر عن اشتراكه فى الهيج وتنصَّل منه ، وكان الأمير قد أسف على ما فعل بأهل الربض ، فمال إلى الصفح وعفا عن طالوت ، ثم سأله : أين استترت ؟ .. قال : عند يهودى مدة عام ، ثم إننى قصدت هذا الوزير فغدر بى . فخفَّف عنه «الحكم» وعفا عنه وأمره بأن يعود إلى داره آمناً ..

ثم التفت إلى كاتبه ووزيره أبى البسَّام وقال : يهودى يحفظ هذا الرجل ويخاطر بنفسه ليصون عهده ، وأنت يأتمنك الرجل على نفسه ويسألك أن تأخذ له أماناً منَّا ، فلا يكون منك إلا أن تخونه وتسعى فى هلاكه والتقرُّب إلينا بدمه !! .. انصرفْ عنى مخذولاً معزولاً .. وعلىَّ عهدُ الله ألَّا تخدمنى ولا تدخل علىَّ أبداً .

وقام الوزير الخائن يجرُّ ذيل الخذلان وبارح القصر وهو لا يكاد يصدِّق بالنجاة . كان ذلك قرب منتصف ليلة من ليالى أواخر رمضان سنة ثلاث ومائتين ..

وقد أذلَّ الله هذا الرجل ؛ فافتقر وساءت حاله حتى رُؤِىَ فى فاقة [1] وذل ؛ فقيل : استُجِيبَتْ فيه دعوة الفقيه طالوت .

---

١ - الفاقة : الفقر والحاجة .

موت السلطانة

«ممتاز محلّ»

ننتقل بحديثنا إلى الهند لنتحدث عما جرى لسيدة من أجمل نساء المسلمين وأفضلهن وأكثرهن تُقًى وفعلاً للخير، تلك هى الأميرة الفاتنة الصالحة ممتاز محلّ أو سيدة التاج، واسمها الحقيقى أرجماند بانو بيجوم، وبيجوم لقب تركى يطلق على النساء، وهو مؤنث بج أو بك، أى : الأمير.

كانت أرجماند ابنة آصف خان وكان أخاً للأميرة تورجهان زوجة جاهان شير بن أكبر - سلطان الهند -، وكان آصف خان من كبار رجال الدولة وأغناهم، وهو صاحب الفضل فى وصول شاه جاهان إلى العرش بعد وفاة أبيه جاهان شير فى (صفر ١٠٣٧هـ / ١٦٢٧م).

وكان الأمير شاه جاهان قد رأى أرجماند قبل أن يلى العرش بست عشرة سنة، فوقع فى غرامها لأول ما وقعت عينه عليها، وخطبها له أبوه وبنى بها سنة (١٠٢١هـ / ١٦١٣م) وفى ذلك الحين أصبحت أعز الناس عليه وأقربهم إلى قلبه فأطلق عليها لقب «ممتاز محلّ»، أى : سيدة التاج..

كانت ممتاز محلّ شابة مثقفة وثيقة الإيمان بالإسلام عندما تزوجها شاه جاهان.. كانت تحفظ معظم القرآن، وتقوم بكل فرائض الإسلام... وبينما كانت أترابها يتسلَّيْنَ باللعب والغناء كانت تلك الأميرة الرائعة تجد

راحتها فى السماع لتلاوة القرآن الكريم ..

ومنذ تزوجت شاه جاهان نصحته بالابتعاد عن الخمر ، وكانت الخمر نكبة ابْتُلِىَ بها الكثيرون من سلاطين مغول الهند ...

وجاهان شير نفسه - والد شاه جاهان - مات بعِلَّة إدمان الخمر ، وبالخمر أيضاً مات أخوان لشاه جاهان ، وكان هو نفسه قد بدأ يُقبل على الخمر قبل زواجه من أرجماند ، فطلبت إليه الكفَّ عنها ؛ ففعل وصَلُحَتْ حاله ..

وقد وقفت ممتاز محلّ إلى جانب زوجها فى كل ما مرَّ عليه من المحن ؛ لأن حياة هذا الأمير كانت حافلة بالمتاعب بسبب دسائس القصر ومنافسات البلاط ، فعرفت هذه الأميرة النبيلة كيف تكون الناصحة المخلصة الصادقة لزوجها وخاصة عندما اعتلى العرش ، فقد أصبحت يده اليمنى ؛ تُصلح بينه وبين رجاله ، وتَحول بينه وبين الظلم ومخالفة شرائع الإسلام .

وكانت «ممتاز محلّ» لا ترضى عما كان لغير المسلمين من سلطان فى بلاط «دلهى» ، وتتمسك بأن يكون رجال الدولة من أهل الإسلام ، وكانت تحضُّ زوجها على جهاد الهندوكيين ودعوتهم إلى الإسلام ، وتخرج من مالها الكثير لفقراء الهندوكيين الذين يدخلون الإسلام وتأتيهم بالمسلمين يعلِّمونهم شرائع الإسلام .

وقد بنت عشرات المساجد ، وأنفقت المال الكثير على الفقهاء والمقرئين ، وكانت تأتى بهم من إيران وبلاد الأفغان ، وفى أوقات فراغها كانت تتسلَّى

بنَسْخ القرآن الكريم ، وكان خطها جميلاً ..

وكانت كذلك شديدة العطف على فقيرات المسلمات ، تعمل على أن تجد لهنَّ أزواجاً أو أعمالاً تكفيهنَّ شر السؤال والتبذُّل ، وقد أنشأت العشرات من مصانع النسيج والسجاد لتعمل فيها الفقيرات ويكسبنَ رزقهنَّ عن طريق الحلال ..

وهى أول من أنشأ الدُور للمسنَّات والأرامل من المسلمات ، فهى -على هذا- من رائدات الحركة النسائية . ومن الجدير بالذكر أنها أنشأت المدارس للبنات ؛ وبفضلها تعلمت الألوف من نساء الهند القراءة والكتابة..

وكان زوجها شاه جاهان كَلِفاً بالأولاد حتى صار له ثلاثة عشر ، ستة منهم ذكور ، فأنهك ذلك قوى الأميرة التى كانت تلد مَرَّةً كل عام ونصف ، وبدا عليها الضعف وهى لم تبلغ الخامسة والثلاثين ؛ ونصحها الناس بالكفِّ عن إنجاب الأطفال .

وفى سنة (١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م) حملت ممتاز محلّ بولدها الرابع عشر ، وكانت السلطانة متعبة ، فأخلدت إلى الراحة فى قصر جميل على ضفة نهر «جمنا» .. وأقام زوجها الأطباءَ لرعايتها ، ولكنها كانت تضعف يوماً بعد يوم.

وفى (شهر ربيع الثانى سنة ١٠٤٠هـ / نوفمبر ١٦٣٠م) حل موعد ولادتها ، فأوجس الأطباء خيفة على حياتها ، لأن قلبها كان قد وهن ، وفى (التاسع عشر من ربيع الثانى / ٢٦ نوفمبر ١٦٣٠م) جاءها المخاض ، وتعسَّرت

ولادتها طوال النهار ، وعندما حل المساء أخذت قواها تضعف حتى يئس الأطباء من إنقاذها ، وزوجها شاه جاهان يكاد يُجَنُّ خوفاً على زوجته الأثيرة عليه ، ثم أفاقت فى الهزيع الثانى من الليل ، وتصبَّب منها عرق غزير ، ثم وضعت مولودها ، وطلبت ماءً للشرب ، ثم وضعت رأسها على الوسادة وعادت لها الحُمَّى ، ولم يطلع على الأرض شعاع الفجر الأول حتى كانت ممتاز محلّ أجمل النساء وأخلص الزوجات قد أسلمت الروح ..

وحزن عليها زوجها حزناً شديداً ، وعزف عن لذات الدنيا ومباهجها بقية حياته ، فظل متقشفاً طوال السنوات الخمس والثلاثين التى عاشها من بعدها ...

وتذكَّر عقب وفاتها أنها قالت له ذات يوم وهى ترسل ببصرها إلى مياه نهر جمنا : هنا أتمنى أن أعيش إلى الأبد .. هذه روضة من رياض الجنة .

فلما ماتت قرر أن يبنى لها روضة - أى : مدفناً - فى نفس الموضع ، وبالفعل جمع المهندسين من الهند وإيران ليضعوا مخطَّطاً لهذه الروضة ، وتولى وضع التصميم النهائى المهندس الأستاذ عيسى ، وبدأ البناء سنة ١٦٣٢م ، ولم ينتهِ إلا سنة ١٦٤٣م ، أى أنه استغرق إحدى عشرة سنة .. تلك هى «روضة تاج محلّ» أجمل روضات الدنيا وإحدى روائع الفن الإسلامى على مر العصور.

آخر خلفاء بنى أمية فى الأندلس

فى السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ ، قامت الثورة فى قرطبة على عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبى عامر ، بعد أن استبدَّ المنصور وولداه بأمر الأندلس نحو ثلاثين سنة كلها ظلم واستبداد تحت ستار مجد بارق زائف وغزوات قام بها المنصور يعدونها بالعشرات ، ولكنها لم تضف إلى الأندلس الإسلامى شبراً واحداً من الأرض .

وكان القائم بالثورة فَتًى من أحفاد عبد الرحمن الناصر يسمى محمد بن عبد الجبار ، الذى تلقَّب بالمهدىّ ، ثم تبين أنه إنسان أهوج خسيس الطبع فلم يلبث أن خُلِعَ عن الخلافة ، وعقب ذلك دخلت الأندلس فى دوامة خَطِرَة لم يستقرّ لها بعدها حال ، وتعاقب الخلفاء من بنى أمية يدفع الواحد منهم الآخر .. كأنهم ممثلون هزليون يبقى الواحد منهم تحت الأضواء لحظات ثم يحل محله غيره .

وفى خلال ذلك توالت الحروب بين الطامعين فى العرش ، وخربت قرطبة شيئاً فشيئاً حتى أصبح البلد الزاهر بعد عشرين سنة من هذه الفتنة أطلالاً بالية - كما يقول ابن حزم فى «طوق الحمامة» - .

وعندما بلغت الفتنة ذروتها استقر رأى كبراء قرطبة وعلى رأسهم

أبو الحزم بن جهور على أن يعطوا فرصة أخيرة لأموى جديد وينظروا ماذا يكون من أمره ، واستقر رأيهم على أن يكون الخليفة الجديد هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، وكان رجلاً خاملاً فى الرابعة والخمسين من عمره ، وكان يعيش متوارياً عن الأنظار فى مدينة البونت تحت كنف صاحبها والـمُستبدّ بأمرها عبد الله بن القاسم الفهرى ، وكانت البونت إمارة صغيرة من إمارات الطوائف من أعمال بلنسية ، وعندما جاء الخبر بأن أهل قرطبة بايعوه خليفةً فى (ربيع الثانى سنة ٤١٨هـ / يونيو ١٠٢٧م) لم يَهَشّ للخبر ولم يَطْرَبْ ، ولم يتسرع فى المسير إلى قرطبة خوفاً من أن يصيبه ما أصاب مَنْ سبقه من خلفاء عصر الفتنة .

وبعد تردد سنتين ذهب إلى قرطبة ودخل القصر فى (ذى الحجة ٤٢٠هـ/ ديسمبر ١٠٢٩م) ، دخله فى ملابس زرية وهيئة نابية ، فاقتحمته العيون واستهان به الناس ..

ولم يلبث أهل قرطبة أن تبينوا أن مَلَكَاتِهِ ليست أحسن حالاً من ملابسه ، وأن الله لم يهبه أىَّ مَلَكَةٍ من مَلَكَاتِ الرياسة والخلافة .

اتخذ هذا الخليفة البائس لقب الـمُعتدّ بالله ، واختار لنفسه وزيراً من السُّوقة يسمى حكم بن سعيد القزاز ، كان أصله حائكاً فلقَّبه الناس بالحائك ، وجعل هذا الوزير دأبه إرضاء سيده وتيسير المتعة له بدلاً من تدبير أمور الدولة ، وكان من سوء الحظ أن أبا الحزم بن جهور كان يطمع فى الأمر لنفسه ، فترك هذا المسكين يُصَرِّفُ الأمر كما يشاء ..

وأين رجل مثل هشام هذا - ووزيره الحائك - من الدولة وشئونها ،

وخاصة فى الظروف العسيرة التى كانت تجتازها قرطبة ؟!..

تَرَكَهُ - إذن - أبو الحزم بن جهور وأصحابه ، فلم يجد الرجل إلا السوقة والعاطلين يعتمد عليهم .

وكانت قد تكونت فى قرطبة أثناء الفتنة عصابة من شرار الخلق تسمى نفسها «الدائرة» تحيط بأى خليفة وتزعم أنها تعينه وتحميه ، وهى فى الحقيقة تجره إلى حتفه ، فما كانت «الدائرة» تضم إلا سُرَّاقاً ونهَّابين وقتلة وسفَّاكين ولصوصاً ممن نطلق عليهم عادة صفة «البلطجية» - إذا جاز لى استعمال هذا اللفظ الردىء - .

وسارت الأمور من سيّئ إلى أسوأ ، وسقط الخليفة المعتدّ من أعين الناس ، ثم قام عليه أمير أموى آخر يسمى أمية بن عبد الرحمن بن هشام ابن سليمان ، ومضى ينافسه ، والتفَّت حوله هو الآخر دائرة من أهل السوء تمكنت من اغتيال الوزير الحائك وهجمت على قصر الخلافة ..

وهنا تَدخَّل أبو الحزم بن جهور وسراة قرطبة ، فعقدوا اجتماعاً تدارسوا فيه الأمر وما صار إليه ، وانتهى أمرهم إلى أن بنى أمية الأندلسيين قد انقطع الرجاء فيهم ، وأن خير ما يفعلونه هو أن يعلنوا نهاية هذه الأسرة ويخرجوا بقية أفرادها من قرطبة وفى مقدمتهم ذلك الخليفة المسكين ..

وكانت هذه جريمة كبرى ؛ لأن إلغاء الخلافة معناه القضاء على رمز وحدة الأندلس ، وكانوا قادرين على الإبقاء عليها وتَوَلِّى الأمور من دون الخليفة لتظل فكرة الوحدة قائمة .

وذهبوا إلى الخليفة البائس قرب المغرب وأعلنوه بالقرار وطلبوا منه مغادرة القصر والبلد ، فاستمهلهم إلى الغد فهو لا يستطيع مغادرة البلد وقد هبط الليل ، فأخرجوه من القصر وأمهلوه إلى الصباح . وكانت هناك قنطرة فوق الشارع الرئيسى فى قرطبة تؤدى من القصر إلى المسجد الجامع ، تسمى «الساباط» ، فقعد فيها المسكين وأرسل حرمه إلى بيت أحد السراة لقضاء الليل ، وبقى مع ابنة صغيرة استبقاها ليأنس بها فى وحشة الليل ، وعندما هبط الليل دخل الجامع وصلّى العشاء ، وأَذِنَ له قَيِّمُ المسجد فى المبيت فى المقصورة ، فطلب المسكين شمعة لتأنس الصبية بنورها ، فأتوه بها قرب منتصف الليل ..

وبعد منتصف الليل بقليل انطفأت الشمعة وبقى آخر خلفاء بنى أمية الأندلسيين فى ظلام دامس فى جامع مساحته خمسة أفدنة ، وضم الرجل ابنته النائمة إلى صدره واستوسن [1] إلى الفجر .

كانت تلك ليلة الحادى عشر من شوال سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة/ الثلاثين من ديسمبر سنة ١٠٣١م.

وفى الصباح غادر الرجل قرطبة إلى سرقسطة ، واختفى فى غمار الناس .. وتلك كانت نهاية بالغة الحزن لدولة من أمجد دول المسلمين .

---

١ - استوسن : أخذ فى النُّعاس .

مقتل السلطانة
«شجر الدر»

فى صباح يوم الاثنين (٢٧ من شهر المحرم سنة ٦٤٨هـ / الموافق ٢ مايو ١٢٥٠م) قام أربعة من زعماء المماليك البحرية بقتل السلطان توران شاه ابن الملك الصالح أيوب آخر سلاطين الأيوبيين على مصر ، وانتهت بذلك دولة بنى أيوب فى مصر ..

وكان قتل توران شاه على يد سيف الدين أقطاى وبيبرس البندقدارى زعيمى المماليك البحرية - وهم مماليك الصالح أيوب ، اجتلبهم وأكرمهم وأسكنهم قلعة الروضة ؛ فكانت النتيجة أن قتلوا ابنه وقضوا على سلطان أسرته كلها فى مصر - .

وقد نتج عن قتل توران شاه موقف خطير كان لابد من الخروج منه ؛ فالمماليك الذين قتلوا سيدهم لا يزيدون عن كونهم مماليكه أو خدماً للدولة وسلطانها ، ولا يمكن لهذا أن يكون منهم سلطان للبلاد ، وكان المفترض أن يصير مُلْك مصر إلى واحد من أمراء البيت الأيوبى فى الشام ..

وأكبرهم الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى ملك حلب منذ سنة (٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) ، ويليه المغيث عمر صاحب الكرك ..

وبالفعل طلب الناصر يوسف صاحب حلب مُلْك مصر ، وأخذ يستعدُّ للسير إليها ، ولم يكن المماليك البحرية مستعدين لقبوله سلطاناً على مصر

لأنهم قتلة ابن عمه توران شاه .. ولو دخل مصر لكان أول ما يفعله هو قتل رؤسائهم الذين اقترفوا هذه الجناية ..

وبينما كانوا فى حيرة من أمرهم نهضت فيهم «شجر الدر» - أرملة الصالح أيوب ، وأم توران شاه - ، وأقنعتهم بأن يُقِيمُوها سلطانة تعبيراً عن احترامهم للبيت الأيوبى ..

وأشارت بأن يكون اسمها الرسمى «والدة خليل» وهو ابن للصالح أيوب أنجبته شجر الدر ومات فى حياة أبيه ..

وأضافت أنهم يستطيعون إقامة واحد من كبار المماليك أتابكاً ، أى : نائباً للسلطنة حتى يرى الناس أن المُلْكَ ما يزال بيد رجل ..

وتم ذلك فعلاً ، وأُخِذَتِ البيعة للسلطانة الجديدة فى ١٠ صفر ٦٤٨هـ/ مايو ١٢٥٠م ..

وتَولَّت العرش شجر الدر والدة خليل الصالحية ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين المستعصمية ، صاحبة الملك الصالح .

وباستثناء رضيَّة الدين سلطانة دلهى فيما بين سنتى ١٢٣٦م و ١٢٤٠م تعتبر شجر الدر أول سلطانة مسلمة تربعت على عرش دولة إسلامية .

وأحسن وصف لأخلاق شجر الدر هو قول ابن إياس الحنفى المؤرخ إنها «كانت امرأة صعبة الخُلُق ، شديدة الغيرة ، قوية البأس ، ذات شهامة زائدة وحُرْمَةٍ [1] وافرة ، سكرانة من خمرة التيه والعُجْب» .. ومن المسلَّم به أنها كانت امرأة ذات جمال وافر .

١- المراد بالحُرمة هنا : المَهابة .

غير أن الناس فى مصر أَنِفُوا من أن تملكهم امرأة ، ورفض الخليفة المستنصر العباسى الاعتراف بها ، فلجأت هذه المرأة الذكية إلى حيلة وهى أن تحتفظ بالسلطان فى مقابل التنازل عن ظاهره ، فعرضت أن تتزوج مُعِزُّ الدين أيبك نائب السلطنة وتتنازل له عن اللقب فى الظاهر ..

وتم ذلك فى يوليو ١٢٥٠م ؛ وتنازلت شجر الدر عن ظاهر السلطان بعد أن حكمت ثمانين يوماً ؛ وانتقل اللقب إلى معزِّ الدين أيبك ..

وكان المعزُّ أيبك شديد الخوف على سلطانه من المماليك البحرية وخاصة سيف الدين أقطاى وبيبرس البندقدارى ، فدبَّر مؤامرة قُتل فيها أقطاى ، وفرَّ بيبرس وبقية المماليك البحرية إلى الشام ..

ودخل بعضهم فى خدمة المغيث عمر صاحب الكرك ، وبعضهم الآخر فى خدمة سلطان سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، وظلوا يتربصون الفرص للعودة إلى مصر ، والانتقام من المعزِّ أيبك الذى أنشأ لنفسه طائفة كبيرة من المماليك عرفت بـ «المُعِزِّيَّة» ..

وعلى الرغم من تنازل شجر الدر عن السلطنة إلا أنها ظلت تراسل زعماء المماليك البحرية سرًّا لتستعين بهم إذا غدرها المعزُّ أيبك ، وشعر هو بذلك وخافها على نفسه ، فترك مقامه فى القلعة ونزل إلى القاهرة وسكن بمناظر اللوق قرب ما يعرف اليوم بباب اللوق فى القاهرة .

وأراد أيبك أن يستقوى على زوجته وشريكته فى السلطنة شجر الدر فكتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته ..

وهنا ثارت مراجل الغضب فى نفس تلك المرأة القوية شجر الدر؛

فما زالت بأيبك حتى استدرجته إلى القلعة حيث قام غلمانها بقتله فى أبريل ١٢٥٧م .. وعرضت السلطانة نفس الأمر على اثنين من كبار المماليك المُعِزِّيَّة ، فرفضا..ذلك أن غضب الناس على شجر الدر كان عظيماً نظراً لمؤامراتها التى لا تنتهى ، فاجتمع أمر المماليك المُعِزِّيَّة على التخلص منها ، ولكن المماليك البحرية ظلوا على ولائهم لها ..

واتفقوا على أن تقيم فى البرج الأحمر فى القلعة معزَّزة مكرَّمة ..

وهنا - وقد فقدت شجر الدر سلطانها وأقامت شبه سجينة - تحركت امرأة أخرى للأخذ بثأرها منها ، والويل من النساء للنساء .. تلك هى زوجة المعزِّ أيبك الأولى وأم ولده علىّ ، فقد كانت شجر الدر قد منعته من زيارتها بعد زواجها منه ، وما زالت به حتى طلَّقها ..

وكظمت هذه المرأة غيظها .. حتى أمكنتها الفرصة فى غريمتها ، فما زالت تُغرى المماليك البحرية الصالحية وتخوِّفهم غدر شجر الدر حتى تخلَّوا عنها ، بل حملوها مقيَّدة إلى دار غريمتها ، فحبستها فى غرفة مظلمة حتى أقبل الليل ..

وفى منتصف ليلة من ليالى (ربيع الأول ٦٥٥هـ/ أبريل ١٢٥٧م) دخل نفرٌ من جوارى «أم علىّ» على السلطانة المعزولة ، وانْهَلْنَ عليها ضرباً بالقباقيب - مبالغة فى الإهانة - حتى أسلمت الروح ، ثم ألقَيْنَها من سور القلعة إلى الخندق ، فبقيت جثتها فى الخندق أياماً ، ثم حُملت فى «قُفَّةٍ» ودفنت فى قبرها قرب جامع السيدة نفيسة فى القاهرة .

ابن خلدون
يفرغ من المقدمة

نحن فى قلعة بنى سلامة التى تسمى أيضاً «تغزوت» بالبربرية ، وهى قرية صغيرة إلى الشمال الغربى من واحة «بسكرة» إلى الجنوب من مدينة القنطرة فى شرقىّ جمهورية الجزائر الحالية .

القرية ساكنة ساجية فى هدأة الليل ، وقد أغلق أهلها أبواب سور قريتهم الصغيرة ، فإن الزمان مضطرب ، والأمن مختلٌّ ، وبنو مَرِين سلاطين الجزائر فى تلك الأيام كانوا عاجزين عن ضبط الأمور ، فالحروب على قدم وساق بين القبائل ، ومناوشات الحدود لا تسكن بين بنى مَرِين وجيرانهم الحفصيين فى تونس .

وفى بيت صغير فى قرية بنى سلامة كان رجل - وسيم الهيئة ، أبيض البشرة ، أسود الشعر ، حادُّ العينين ، فى الخامسة والأربعين من عمره - جالساً متربعاً على حشية ، وأمامه منضدة صغيرة عليها مصباح زيتى أو بطة - كما كانوا يسمونها إذْ ذاك - .. كان الرجل مُكِبًّا على أوراق يكتبها وقد أسندها إلى فخذه . كان المصباح يرسل من الدخان أكثر مما يبعث من النور ، ولكن بصر الرجل كان حديداً ، وكان غارقاً فى مراجعة الصفحات الأخيرة من كتاب أَلَّفَه ، ويده تمتد بين الحين والحين فتغمس قلمه البوص فى

دواة إلى جانب المصباح ثم ينظف بأصابعه ما عسى أن يكون قد علق بسنّ القلم من صوفة الليقة [1] الراقدة فى المحبرة .. يضيف هنا كلمة وهناك فقرة ، وعندما انتهى من المراجعة كتب : أتممت هذا الجزء الأول المشتمل على المقدمة بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب فى مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة ، ولله الحمد والمنة . كتبه فى ليلة التاسع من جمادى الثانية من السنة المذكورة العبد الفقير إلى رحمة ربه ، الغنى بلطفه / عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى وفّقه الله تعالى .

هكذا ، وفى صمت الليل البليغ راجع ابن خلدون مقدمته المشهورة وانتهى من المراجعة قرب منتصف الليل فى تلك القرية النائمة فى لحف[2] جبل من جبال الأوراس فى الجزائر الحالية ، وأوى إلى فراشه وهو لا يدرى أنه وضع غُرّةً من غُرر الفكر العالمى ، وبدأ فى تاريخ التأريخ عصراً جديداً ، واخترع للناس علماً جديداً هو علم الاجتماع ، وخطا بفلسفة التاريخ خطوة شاسعة إلى الأمام .

كتب ابن خلدون مقدمته هذه ، وقفّاها [3] بتاريخه الكبير المعروف بـ «العِبَر وديوان المُبتدأ والخبر» خلال فترة من الهدوء ؛ وكأنها الهدنة فى حياة رجل عنيد مكافح تمتد من (١٣٧٤ - ١٣٧٨م) ، وربما كانت هذه هى فترة الهدوء الوحيدة فى حياة هذا الرجل ..

١- اللِّيقَة : صوفة الدواة .
٢- اللَّحف : أصل الجبل .
٣- قفّاها : أتبعها .

كانت السنوات التى سبقت هذه العزلة أو الخلوة فى قرية بنى سلامة أو «تغزوت» سنوات حافلة بالمغامرة والنشاط ، فلم يكد يفرغ من الدراسة الأولى فى سن الثامنة عشرة حتى عُيِّن كاتباً للعلامة أى : صاحب الخاتم عند سلطان بجاية ، وهناك ظل حتى سنة ١٣٥٣م .. (كانت سِنُّهُ عندما ترك هذه الوظيفة إحدى وعشرين سنة) .. ثم ينتقل بعد ذلك إلى «فاس» عاصمة المرينيين ، ويدخل فى خدمة سلطانهم أبى عنان ، ويظل فى خدمته تسع سنوات (١٣٥٤ - ١٣٦٣م) .

ويفيد من ساعات فراغه ليكمل دراسته الفقهية حتى أصبح من أعلام المالكية . وكان ابن خلدون بطبعه رجل سياسة ومغامرة ، فهو يتدخل فى شئون الدولة ويتولى المهام السياسية ، ويخونه الحظ فيغضب عليه السلطان ويقضى سنتين فى السجن (١٣٦٣ - ١٣٦٥م) .

وخلال هذه السنوات أيضاً يَسْفِرُ [1] لسلطان بنى مَرِين عند بدرو القاسى ملك قشتالة ، ويزور غرناطة ويَلْقَى لسان الدين بن الخطيب ، وتكون بين الرجلين الكبيرين صحبة وصداقة ..

ويميل ابن خلدون إلى المقام فى غرناطة يدفعه إلى ذلك حنينه إلى إشبيلية موطن أجداده بنى خلدون الحضرميين ، ولكنه يحس الغيرة من جانب صاحبه الوزير العلَّامة الشاعر ابن الخطيب ، فيغادر غرناطة إلى المغرب ..

ولا يستقر ابن خلدون فى فاس ، بل نجده يرحل إلى بجاية حيث يتولى الحجابة لأميرها ، ويظل هناك تسع سنوات (١٣٦٥ - ١٣٧٤م) ، ثم يزداد

١- سَفَرَ ، يَسْفِرُ ، أى : كان سفيراً .

الاضطراب من حوله وتشتد المؤامرة ، فيترك الرجل الوظيفة ، ويلجأ إلى أصدقائه أصحاب قرية بنى سلامة ، وهناك بعيداً عن أخطار السياسة ومنافسات الوظائف وحزازات القبائل جلس الرجل العظيم وأخذ هدنة من الدنيا ومن الناس ، وأهدى البشرية عملاً من أعظم ما أخرجه الذهن البشرى ..

بعد أن فرغ ابن خلدون من تاريخه الضخم عاد مرة أخرى إلى دنيا الناس ، إلى دنيا المطامع والآمال ، والسياسة ، والمتاعب .. تلك كانت الفترة المصرية من حياته التى امتدت من سنة ١٣٨٢م إلى وفاته سنة ١٤٠٦م ، فترة صراع مرير مع الخصوم والأنداد ، تولى القضاء وعُزل عنه أكثر من مرة ، وسَفَرَ بين سلطان مصر وتيمور لنك سنة ١٤٠١م ، وكاد يقع فى يد الطاغية التترى . وأخيراً وبعد خمس وسبعين سنة من الكفاح والاضطراب والدَّسِّ والمخاطر والتأليف توفى ابن خلدون فى ١٧ مارس سنة ١٤٠٦م فى القاهرة .

كانت حياة ابن خلدون حافلة بالمتاعب والمغامرات ، حتى موته ..

ولكن أجمل فترة من حياته كانت سنوات الاعتزال الخمس فى قرية بنى سلامة غير بعيد عن «بسكرة» أجمل واحات الدنيا ..

وأسعد ساعات هذه العزلة كانت منتصف ليلة التاسع من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وسبعمائة ..

ساعةَ كتب السطر الأخير من مقدمة ابن خلدون .

مصرع المتوكل

يذكر بعض مؤرخينا أن الواثق كان آخر الأقوياء من بنى العبَّاس . وربما كانوا على الحق فى ذلك ، فإن هذا الرجل - واسمه هارون بن أبى إسحاق المعتصم - كانت فيه حزامة [1] وهمَّة وجراة تذكرنا ببعض ملامح جَدِّه أبى جعفر المنصور ، وقد حكم ست سنوات (٢٢٧ - ٢٣٢هـ / ٨٤٢ - ٨٤٧م) ، حفظ على الدولة خلالها مهابتها وقوتها ، ولكنه وقع فى خطأين جسيمين لن يغفرهما له التاريخ : **الأول** أنه رفع مكانة الأتراك واستكثر منهم وأسلمهم زمام الدولة ومال بعواطفه عن العرب - وهم عَصَبُ الدولة ومَلَاكُها ، ولا دوام لخلافة إسلامية بغير العرب - ..

والخطأ **الثانى**: أنه أسرف فيما بدأه جَدُّه المأمون وأبوه المعتصم من التمسك ببدعة القول بخَلْق **القرآن الكريم** وامتحان الناس وامتهان أهل العلم والدين فى قضية غير ذات أساس كهذه ..

ولم يعهد الواثق لأحد من أولاده بالخلافة ، فصارت بعد موته إلى أخيه جعفر بن المعتصم الذى تلقَّب بالمتوكل على الله ، وكان مثل أخيه قصير العمر ، ولكن خلافته كانت أطول ، فقد حكم ست عشرة سنة من (٢٣٢ إلى ٢٤٧ للهجرة / ٨٤٧ إلى ٨٦١ للميلاد) ..

١- اى : كان حازماً .

وأحس المتوكل لأول ولايته بثقل وطأة العسكر التركى على الخليفة والدولة .. كانت سِنُّهُ يوم وَلِىَ الخلافة ستًا وعشرين سنة هجرية ، ووجد نفسه من أول الأمر يملك ولا يحكم ، فالأمر كله بيد رجال من الأتراك يعتزون على الخلفاء بمن تحت أيديهم من الأجناد ، وهم أتراك مثلهم ..

وحيثما تلفَّت الخليفة وجد أمامه تركيًا أو تركية ، فقد كان القصر أيضاً بيد نساء تركيات من جوارى الخلفاء وأمراء البيت .. ويبدو أن نفور المتوكل من هذه السيادة التركية جاء من أن أمه - وهى أُمُّ ولدٍ يقال لها «شجاع» - كانت خوارزمية أو رومية ..

وبعد سنوات قلائل من الحكم وجد الرجل أن الاستمرار على هذه الحال من المحال ، فإن الدولة دولة العرب ..

ولكنها فى الحقيقة كانت بيد مواليهم وعبيدهم الذين اشتروهم بأموالهم ليكونوا صنائع لهم ، فإذا بهم يصبحون أصحاب الأمر فى الدولة وفى سادتهم الخلفاء ..

وينبغى أن تعود إليهم ..

وبدأت تدور فى ذهنه فكرة التخلص من هذا الاستبداد غير المعقول والعودة إلى العرب ، وتحدَّث فى بعض مجالسه بذلك ..

إن العرب ، وإن كانت فيهم أَنَفَةٌ وميلٌ إلى الشغب ، إلا أنهم ليسوا أهل غدر وخيانة وكفر بالنعمة ..

وبلغ الخبر كبار الجند التركى .. فساءلوه فيه ؛ فأنكر قوله إياه ، وبدا

منه خوف وقلة ثبات أطمعتهم فيه .. ودبَّروا قتله أثناء زيارة له إلى دمشق ، ولكن المؤامرة لم تفلح .. وكان الرجل قد زار دمشق لأنه كان يفكر فى نقل الخلافة إليها ليكون فى وسط عربى بعيداً عن سيطرة الأتراك ..

ورأى المتوكل أن يتقرب إلى قلوب الناس ، فأمر بإيقاف بدعة القول بخَلْق القرآن وامتحان الناس بها ، وأمر بترك النظر والمباحثة والجدل الفارغ فى شئون العقيدة ، ومال بالناس إلى الطريقة القديمة من التسليم والتقليد وإظهار السُّنَّة وتأييد الجماعة ، فرضى الناس عنه وأحبوه وامتدحه أهل الفقه والدين وقالوا : الخلفاء ثلاثة : **أبو بكر الصديق** يوم الرِّدَّة ، **وعمر ابن عبد العزيز** فى ردِّه للمظالم ، **والمتوكل** فى إحياء السُّنَّة .

وعزَّ على الأتراك أن يحوز المتوكل محبة الناس وأن يلتفَّ حوله أهل الفقه والدين والورع ، ووقع فى ظنهم أن هذا تمهيدٌ لتنفيذ ما كان يدور فى رأسه من نزع الأمر من أيدى الترك وإعادتهم إلى مكانهم الحقيق بهم فى نظام الدولة : جنداً وحرساً لا سادة مستبدِّين .

وحَسِبَ الرجل أنه يزيد من مكانه قوة إذا هو بالغَ فى تأييد السُّنَّة بالحملة على الشيعة ، فوقف من العلويين موقف العداء ، وتمادى فأمر فى **سنة ست وثلاثين ومائتين** بهدم قبر **الحسين** وما حوله من الدور وتحويل الموضع إلى أرض زراعة وفلاحة ، فكانت تلك من سقطاته التى جَرَّأَتْ خصومه عليه ..

وكان المتوكل قد جعل ولاية العهد فى ثلاثة من أكبر **ولده (أولاده)** وهم على الترتيب : محمد ولقَّبه **بالمنتصر** ، وعبد الله ولقَّبه **بالمعتزّ** ،

وإبراهيم ولقَّبه **بالمؤيّد** ، واستمر الأمر على ذلك زماناً ..

ولكن جاريته المسمَّاة «قبيحة» - سُمِّيت كذلك لحسنها الفائق ، وهو من أسماء الأضداد - أرادت أن تستخدم جمالها في جعل ابنها عبد الله المعتزّ خليفة لأبيه ، وكان الرجل كَلِفاً بقبيحة هذه لا يكاد يرفض لها أمراً ..

وكان هذا رأياً دَبَرِيًّا [1] فاسداً ، ولكن فتنة المرأة أذلَّت الرجل فوقع فيما كان فيه حتفه .. فقد غضب لذلك ابنه محمد المنتصر ، وكانت ولاية العهد له ، ووَغَرَ صدره وداخله الشيطان ؛ ففكر في الاعتزاز بأعداء أبيه ، ومبادرته قبل أن تُحكِم قبيحة أمرها ، وتآمر مع اثنين من كبار قادة الترك هما **بغا** الصغير ، **وباغر** ..

وأحكم المتآمرون أمرهم .. فما إن دخل الخليفة مخادعه واطمأن بين جواريه وخدمه حتى احتل جند من الترك الدهاليز المؤدية إلى غرف المتوكل .. وانتظروا حتى اطمأن الرجل وأوى إلى فراشه ؛ ودخلوا عليه بالسيوف وتعاوروه بالضربات حتى تناثر دمه ولحمه في أنحاء الغرفة التي كان ينام فيها ، ووقعت هَيْعَةٌ [2] في القصر وتعالى صراخ النساء ، بينما كان ابنه وقاتله «المنتصر» يبتسم مع أصحابه ويستعدُّ للمناداة بنفسه «خليفة» ..

كان ذلك في منتصف ليلة الرابع من شوال سنة **٢٤٧** للهجرة / الثاني عشر من ديسمبر سنة **٨٦١** للميلاد .

١- الدَّبَرِيُّ هو الذي يأتي متأخراً بعد فوات الأوان .
٢- أي : ضجّة وصياح شديد .

مصرع
الخليفة العباسى «الهادى»

توفى الخليفةُ العباسى الثالث محمد بن عبد الله المنصور الملقَّب بالمهدىّ سنة (١٦٩ هـ / ٧٨٥ م) ، وبموته انتهت فترة قصيرة من الهدوء والأمان فى تاريخ تلك الدولة ، وقام مكانه ابنه موسى الملقَّب بالهادى ، وكانت سِنُّهُ عندما تولى هذا المُلْك الشاسع أربعاً وعشرين سنة هجرية ، أو ثلاثاً وعشرين سنة ميلادية إلا قليلاً ..

ولأول ولايته تبيَّن الناس أن الأمر قد تبدَّل ، وأن أيام المهدىّ الرضيَّة قد ذهبت مع أمس الدابر ، وأنهم أمام شاب شرس قاسى القلب جرىء على الدماء ، قليل التفكير متسرع فى التصرف عن نزق وطيش «وجبرية ينسب إلى الهوج» كما يقول المسعودى (صاحب كتاب مروج الذهب) .

وواضح أن ذلك المُلْك العريض الذى صار إليه زعزع ثباته وأطار جانباً من عقله ، وكان إلى جانب ذلك إنساناً ضخماً بديناً جسيماً [١]، وكانت تصدر منه بدوات لا تدعو إلى الاطمئنان إليه . ولهذا فقد دبَّ الخوف فى نفوس الناس من حوله ، وأخذوا يصانعونه ويسايرونه فيما يخطر بباله حذراً من بطشه ..

وكانت أخوف الناس منه أمه الخيزران بنت عطاء ، وكانت جارية

١- رجل جسيم : عظيم الجسم .

تنسب إلى «جرش» من بلاد اليمن لأنها ولدت فيها ، ولكنها صارت إلى المهديّ فيما صار إليه من أسلاب حاكم طبرستان عندما ثار عليه ، ثم قضى عليه المهديّ .

ويقال إن الخليفة المنصور اشتراها فى مكة إذْ أعجبته ، ثم أهداها لابنه المهديّ فولدت له قبل ولايته للعهد ابنه موسى الهادى ، ثم ابنه الثانى هارون الذى سيتلقب بالرشيد عندما يعتلى عرش الخلافة . وكان الفرق فى السِّنّ بين الاثنين قليلاً لا يزيد على ثلاث سنوات ، ولكن الفرق فى الخُلُق كان جسيماً ، فبينما كان الهادى قاسياً عنيفاً متسرعاً إلى البطش كان هارون هادئاً وديعاً بعيد النظر مع ذكاء وحسن تصرُّف فى الأمور .

وكانت الخيزران امرأة ذكية أريبة ، تعلمت الكثير من شئون السياسة وأمور الدولة أيام زوجها المهديّ ، وكانت أثيرة عنده ، يستشيرها فى الأمر فتشير عليه بالرأى ، فيأخذ به ..

وكانت قد ربطت حبالها بحبال الوزير الذكى الأريب يحيى بن خالد البرمكى ، فعظُم مكانها فى الدولة وصارت تشفع للناس وتقضى حاجاتهم وتكسب قلوبهم ومحبتهم ، وصار جناحها فى القصر مَحَطَّ الأنظار ومجمع كبراء الناس ، يزورونها فى حاجاتهم وحاجات الدولة ، وكان القادة والوزراء يزورونها ويجدون منها كل بِرٍّ وكرامة .

ومن أول الأمر شعر موسى الهادى بالغيرة من أخيه هارون .. وكان يحسُّ أن الناس يُقدِّرونه ويُحِبُّونه ، وأن أمه الخيزران تفضِّله عليه . وبالفعل كان هارون الذكى الهادئ الطبع البعيد الفهم مَحَطَّ حب أمه كله ، وكان كما يقول أبو الحسن المسعودى «أحب إليها من الدنيا وما فيها» ؛ فكانت

الخيزران فى لهفة دائمة على ابنها هارون ، تخاف عليه من أخيه ..

ومن أول خلافته بدأ يفكر فى خلع أخيه هارون عن ولاية العهد وتصيير الأمر لابنه - ابن الهادى - وكان صبيًّا صغيراً يسمى جعفر ، فتحدث فى الأمر إلى وزيره يحيى بن خالد ؛ فنصحه بالتريُّث فى الأمر حتى يكبر جعفر ويصبح أهلاً لولاية العهد ، فسكت على مضض ، وجعل يُزرِى بأخيه ويتنقصه وينال منه فى كل مناسبة ، وكانت الأخبار تصل إلى الخيزران فتزداد جزعاً على جزع ..

ونفد صبر الهادى أخيراً ، وقرر خلع أخيه وجعل ولاية العهد فى ابنه جعفر ، وتحدث فى الأمر مع يحيى بن خالد البرمكى فنصحه بالعدول عنه ، فغضب عليه وأمر به إلى السجن فلبث فيه زماناً ، وبلغ من غضبه عليه أن هَمَّ بقتله ..

فلما بلغ الأمر هذا المبلغ نصحت الخيزران ابنها الأثير عليها هارون بأن يصانع أخاه ويستجيب له إذا هو طلب إليه التنازل عن ولاية العهد ، ثم أرادت الخيزران أن تبعد هارون عن أخيه جملةً ؛ فنصحته بأن يستأذن أخاه فى السفر إلى المشرق للصيد ، فأذن له ..

فلما استأذنه فرح بذلك وأجابه إلى ما طلب وأعطاه مليوناً ونصف المليون من الدنانير .. وابتعد هارون عن أخيه الحاقد الغيران ..

وتبيَّن الهادى بعد ذلك أن ابتعاد أخيه لم يُصلح الحال ، وأحسَّ أن أمه الخيزران تدعو الناس لأخيه وترعاه على البعد ، فانصرف غضبه نحوها ، ورأى بابها عامراً بكبار الرجال والقادة ، وأن الرِّجْل لا تنقطع عنها ، فدبَّر فى نفسه أمراً ، وخطر بباله أن يزيحها عن الميدان ، فاتخذ من زيارة رجال

الدولة والقادة لها ذريعة ، ومضى إلى جناحها ذات يوم ، وقال لها : ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك؟ أما لك مغزل يشغلك ؟ أو مصحف يذكِّرك ؟ أو بيت يصونك ؟ .. لئن بلغنى أنه وَفَدَ ببابك أحدٌ من خاصَّتى أو قُوَّادى لأضربنَّ عنقه .

وأدركت الخيزران أن المعركة قد بدأت ، وأن ابنها لن يكتفى بذلك ، فهو ناقم عليها لمكانتها من جهة ، وهو حاقد عليها لتفضيلها هارون عليه . وعلمت أنها إذا لم تبادره كانت هالكة لا محالة ..

وأحكمت المرأة أمرها ..

وفى ليلة النصف من ربيع الأول ١٧٠هـ / ١٤ سبتمبر ٧٨٦م ، دخل الخليفة الهادى جناحه واختلى بجواريه ، ومضى يسمر معهنَّ - ولا ننسى أنه الآن فى **الخامسة والعشرين** فحسب - .. وأكل وشرب ثم استرخى بدنه ، وراح فى سُبَاتٍ عميق ، وانفضَّت عنه جواريه ..

وفى منتصف الليل - عندما نامت العيون وسكنت الرِّجْل - دخلت جاريتان تحملان وسادتين .. كانتا عفيَّتين قويَّتين كأنهما رجلان ، واقتربت إحداهما من الخليفة الشاب الغارق فى بحار النوم ووضعت الوسادة على فمه ، ثم وضعت الجارية الثانية الوسادة الأخرى ، وضغطت المرأتان حتى خمدت أنفاس موسى الهادى ..

وتنفَّست الخيزران الصُّعَداء ..

كان ذلك فى منتصف ليلة الجمعة للنصف من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠هـ / ١٥ سبتمبر ٧٨٦م .

الهجرة

جاء الإذْن لرسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ظُهر يوم الجمعة الثانى من ربيع الأول للعام الأول للهجرة (سبتمبر ٦٢٢ للميلاد) فانتظر ﷺ حتى الهاجرة ، ثم ذهب إلى دار أبى بكر ، فَدُهِشَ القوم لقدومه فى هذه الساعة التى لم يسبق له أن أتى فيها دار أبى بكر ، وكانت عادته أن يزوره مرة فى اليوم إما بكرة وإما عشيَّة ..

ولم يكن فى بيت أبى بكر حينذاك إلا بنتاه عائشة وأسماء ، فأبلغه أن الله أذن له فى الخروج ، فقال أبو بكر : الصحبةَ يا رسول الله . فقال الرسول ﷺ - موافقاً - : الصحبة . فبكى أبو بكر فرحاً بصحبة رسول الله - صديقه وحبيبه محمد - ﷺ ، واتَّعدا [1] على الخروج منتصف الليل .

وعاد الرسول ﷺ إلى داره ؛ ومضى أبو بكر يُعِدُّ العُدَّة - وكان يتوقع أن يكون صاحب رسول الله فى الهجرة ، فأعدَّ راحلتين - ، فلما خرج الرسول ﷺ مضى أبو بكر إلى راعى الراحلتين ، واستوثق من أنهما على الأُهبة ، وكانتا ناقتين عفيَّتين ، إحداهما «القصواء» ناقة رسول الله ﷺ ذات الصِّيت البعيد ..

---

١ - اتَّعَدَا : تَوَاعَدَا .

وكانت قريش تتوقع أن يهاجر رسول الله من مكة إلى المدينة قريباً ، فقد رأى رجالُها أصحابَه يخرجون من مكة إلى المدينة فُرادى وجماعات منذ شهور حتى لم يبقَ فى مكة إلا الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، ومَنْ حُبِسَ أو فُتِنَ من المسلمين ، ولهذا فقد أذْكَوا العيون عليه يَرْقُبون حركاته وسكناته [1] ..

وقد يكون خبر الخروج هذه الليلة قد ترامى إليهم عن طريق عبد الله الأرقط الليثى [2] الذى استأجره أبو بكر عصر ذلك اليوم ليكون دليلهما فى الصحراء عندما يبارحان [3] مكة ؛ ولذا فقد تجمَّع نفرٌ من كبار المشركين عند باب رسول الله ﷺ يرقبونه .. فيهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان ابن حرب وطُعيمة بن عَدِىّ وجبير بن مطعم والحارث بن عامر بن نوفل والنضر بن الحارث بن كلدة ، وأبو البخترىّ بن هشام ، وزَمعة بن الأسود ابن المطلب ، وحكيم بن حزام ، وأبو جهل بن هشام ، ونُبَيْه ومُنبِّه ابنا الحَجّاج ، وأمية بن خلف ، وغيرهم من أئمة الكفر ..

وكانوا يمثلون معظم بطون قريش ، وكان رأيها قد اجتمع على أن يتجمَّع هؤلاء ليقتلوا الرسول ﷺ مجتمعين كأن ضربتهم ضربة سيف واحد ؛ فيتفرَّق دمه فى القبائل ..

ونظر رسول الله ﷺ ؛ فرآهم مجتمعين – وقد وضع كل منهم سيفه

١– أى : أرسلوا من يتجسسون عليه .

٢– هو عبد الله بن أرقط (أو عبد الله بن أُريقط) . انظر «السيرة النبوية» لابن هشام .

٣– يبارحان : يفارقان .

إلى جانبه انتظاراً لخروجه- ، فلم يَرْهَبْهُمْ ؛ لأنه كان يعلم أن الله حارسه ، ولكنه رأى - مع ذلك - أن يصرف أنظارهم عنه ؛ فطلب إلى ابن عمه على بن أبى طالب أن ينام فى فراشه ويتسجَّى بِبُرْدِهِ الأخضر ، ففعل ، وكان المؤتمرون ينظرون من شَقٍّ فى الباب بين الحين والحين فيطمئنون إلى أن محمداً ﷺ فى فراشه ..

وعندما انتصف الليل وأتت اللحظة الحاسمة أنام الله أعين الكافرين جميعاً ، فخرج رسول الله ﷺ آمناً ؛ وأغلق الباب خلفه ، ومضى إلى بيت أبى بكر دون أن يشعر به أحد .. وكان قد أوصى عليًا بأن يبقى فى مكة أياماً بعده ليؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس ..

وكانت عائشة وأسماء ابنتا أبى بكر قد أسرعتا بإعداد طعام السفر للرسول ﷺ وأبى بكر ، ووضعتاه فى جراب ، أى : فى كيس ، وقطعت أسماء قطعة من نطاقها فأوكأت به الجراب ، أى : ربطته بها ، وقطعت من النطاق قطعة أخرى صَيَّرتها عصاماً [1] لفم قربة ماء ، فلذلك سُمِّيت أسماء «ذات النِّطاقين» ، وحمل أبو بكر كل ما كان عنده من مال - خمسة آلاف درهم أو ستة - ليضعه تحت تصرُّف الرسول ﷺ .

وبعد منتصف الليل خرج رسول الله ﷺ مع أبى بكر من خَوْخَةٍ - أى: من باب صغير - فى ظهر بيت أبى بكر ، وأسرعا إلى غار فى «جبل ثور» أسفل مكة ، وهناك قضيا ثلاث ليالٍ دون أن يعثر عليهما القرشيون رغم ما بذلوا من جهود ، وكان عامر بن فُهيرة مَوْلَى أبى بكر يرعى غنمه غير

١- العِصَام : حَبْلٌ تُشَدُّ به القِرْبَةُ وتُحمل .

بعيد من الغار ، فإذا أمسى أراح الغنم عنده وحلب لهما ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بالطعام ، فى حين كان عبد الله بن أبى بكر يتسمَّع أخبار مكة ، فإذا أمسى مضى بما سمع إلى الغار ، وأفضى به إلى الرسول ﷺ وصاحبه ..

وفى الليلة الثالثة شعر رسول الله ﷺ وصاحبه أن المكِّيِّين قد يئسوا من العثور عليهما فكفُّوا عن الطلب ؛ فقرَّرا الخروج من الغار والرحلة إلى المدينة ..

وفى منتصف الليل ، ليلة الاثنين ، لأربعٍ خَلَوْنَ من شهر ربيع الأول من العام الأول للهجرة / سبتمبر ٦٢٢م بدأ الرسول الكريم ﷺ رحلته - رحلة الهجرة الكريمة إلى المدينة التى بدأت فى تاريخ البشرية عصراً جديداً - .

بيعة العقبة الثانية

نحن فى أوائل ذى الحجة من العام السابق لعام الهجرة ، فى ليلة من ليالى أيام التشريق التى تعقب مناسك الحج مباشرة ، والحج هنا هو حج المشركين ، لا حج الإسلام ، فهذا لن يتم إلا بعد الهجرة بسنوات ..

الحر شديد لأننا فى شهر يونيو سنة ٦٢٢م ، وموسم الحج على أشدِّه ، وقريش ورجالها مشغولون بمكاسبهم من الحج ، وأموالهم التى يجمعونها من حجيج العرب بكل سبيل ..

وانقضى النهار وجاء المساء وهدأت الرِّجْل ، وتجمَّع القرشيون وضيوفهم من الحُجَّاج فى عَرَصَات الدُّور [١] ، يأكلون ويشربون ويسمرون بالحديث ، وعندما استأخر الليل ونامت العيون ؛ كان رجال من أهل «يثرب» من الحُجَّاج يسيرون تحت جنح الظلام أفراداً وجماعات ، لا تزيد الجماعة منها على ثلاثة أو أربعة رجال .

كانوا يسيرون صُموتاً [٢] فى اتجاه الشِّعب الأيمن إذا انحدروا من «مِنًى» بأسفل العقبة ، وكانوا يخفِّفون الوطء لأن رسول الله ﷺ - الذى رتَّب معهم ذلك الاجتماع - أمرهم ألا ينبِّهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً ..

١- أى : فى أماكن واسعة خالية بين الدُّور .

٢- أى : صامتين .

وتجمّعوا فى الموعد المضروب ، والظلام شامل ؛ لأن هلال ذى الحجة كان يتوارى وراء قمم الجبال . كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من أهل المدينة ، كتب الله لهم الهدى فآمنوا بالله ورسوله منذ شهور ، وأقبلوا ليجتمعوا برسول الله ﷺ ويعاهدوه ويبايعوه البيعة التى عُرفت ببيعة العقبة الثانية .

كان منتصف الليل يقترب عندما سمعوا خُطوات الصادق الأمين، وما لبث أن كان معهم وفى صحبته عمه العبَّاس - ولم يكن قد أسلم بعد - .. وأقبلوا إليه يتبرَّكون بالسلام عليه واعتناقه [١] دون أن ينبس أحد منهم بكلمة [٢] ..

ثم سكنَ القوم ، وساد الصمت ؛ فلا تسمع حركة ولا نَأْمَة [٣] ، وعيونهم شاخصة إلى الرسول الأكرم ﷺ، وقد بانت هيئته على ضوء أشعة نافرة تسللت من مخارم الجبال ..

وكسر طوقَ الصمت العبَّاسُ بن عبد المطلب ، وكان رجلاً جهير الصوت ، ولكنه هذه المرة خَافَتَ من صوته حتى لا يعلو صَوْتُهُ سُمَّاعَهُ القليلين . قال :

«يا معشر الخزرج ، إن محمداً منَّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عزٍّ من قومه ومَنَعَةٍ من بلده ، وإنه

١- أى : مصافحته ومعانقته .
٢- أي : دون أن يتكلموا .
٣- النَّأمة : الصوت الضعيف الخافت . والمراد - هنا - : شدة الصمت .

قد أبَى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحمَّلتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فَدَعُوه ، فإنه فى عزٍّ ومنعةٍ من قومه وبلده ..» .

فقال البراء بن معرور : «قد سمعنا ما قلت ، وإنا - واللهِ - لو كان فى أنفسنا ما تنطق به لقلناه ، ولكنَّا نريد الوفاء والصدق وبَذْلَ مُهَجِ أنفسنا دون رسول الله ﷺ ».

ثم تكلَّم نفر آخر من أهل يثرب ، فقالوا : «سمعنا ما قلت ، فتكلَّمْ يا رسول الله ، فَخُذْ لنفسك ولربك ما أحببت » .

فتكلَّم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغَّب فى الإسلام ، ثم قال : «أُبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» .

فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : «نعم ، والذى بعثك بالحق لَنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنَا (أى : نساءنا) ، فبايِعْنا يا رسول الله ، فإنا -واللهِ- أهل الحروب وأهل الحَلْقة [1] ، ورثناها كابراً عن كابر ».

وقال نفر آخر : «نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف» ..

ولغطوا حتى عَلَتْ أصواتهم ، فقال العبَّاس : «أَخْفُوا جَرْسَكم ، فإن علينا عيوناً . وقَدِّموا ذوى أسنانكم يكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإنا نخاف قومكم عليكم ، فإذا بايعتم فتفرَّقوا إلى محالِّكم ».

١- أهل الحَلْقة ، أى : أهل السلاح .

وبعد لحظة قال البراء بن معرور : «ابْسُطْ يدك يا رسول الله» - وكان أول من ضرب على يد رسول الله مبايعاً . ويقال إن أول من فعل ذلك كان أبو الهيثم بن التَّيِّهَان ، وتتابع القوم مبايعين ..

ثم طلب إليهم رسول الله ﷺ أن يختاروا عن رضاً وسماحة نفس اثنى عشر نقيباً يمثلونهم .. ففعلوه فى هدوء .

فلما تم اختيار النقباء قال لهم رسول الله ﷺ : «أنتم كُفَلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيلٌ على قومى ».

وبعد قليل تفرقوا إلى محالِّهم فُرادى وجماعات فى صمت كما أتوا ، وعاد رسول الله ﷺ مع عمه العبَّاس إلى بيته راضى النفس قرير العين ، فقد عقد البيعة مع رجال ذوى إيمان وصبر وجَلَد ..

كانت تلك هى بيعة العقبة الثانية التى مهدت للهجرة وفتحت أبواب يثرب للإسلام .. وكانت فاتحة النصر العظيم ..

كان ذلك فى منتصف الليل ، فى ليلة ساجية [1] قرب منتصف شهر ذى الحجة من العام الأول قبل الهجرة / يونيو سنة ٦٢٢ ميلادية .

١- ليلة ساجية ، أى : ساكنة وهادئة .

حمراء الأسد

كانت غزوة أُحد يوم السبت الثامن من شوال سنة ثلاث من الهجرة (٢٣ مارس سنة ٦٢٥ للميلاد) ، وقد لقى المسلمون فيها من العناء والخسائر ما يعرفه كل دارس لتاريخ الإسلام ، ولكن الرسول ﷺ عرف كيف يربط المشركين طوال اليوم إلى جبل أُحد ، فلم يَدَعْ لهم فرصة للتفكير فى اقتحام المدينة وتدنيسها كما كانوا ينتوون ، فانصرف المشركون عائدين إلى مكة عندما غابت الشمس مكتفين بما نالوا من المسلمين ..

أما المسلمون فقد عادوا إلى المدينة وقد نال منهم التعب وآذتهم الجراح ، فبات بعضهم يُضَمِّدُ جِراحه فى حين استلقى الباقون وخَرُّوا نياماً .

وسار أبو سفيان بمن معه ، وضربوا خيامهم [1] غير بعيد عن المدينة، ولم تَكَدْ جُنوبهم تمسُّ الأرض حتى أُغرقوا [2] فى النوم ، وعند الفجر فكَّر أبو سفيان بن حرب قائد المشركين فى الفرصة التى ضاعت - لقد كان مستطيعاً لو أراد أن يقتحم المدينة على أهلها منتهزاً فرصة الإعياء الذى أصاب أهلها - ودارت فى رأسه فكرة العودة مسرعاً إلى المدينة لاستدراك ما فات ..

وكأنما كان الرسول الكريم ﷺ يقرأ أفكار خصمه العنيد أبى سفيان ،

١- أى : نصبوها .
٢- أى : استغرقوا .

وقدَّر أنه من الممكن أن يعود بمن معه من الرجال بخيولهم وأسلحتهم لمهاجمة المدينة ، فقرَّر ﷺ أن يبادر إلى العمل - وكان رسول الله ﷺ لا ينتظر حتى تدهمه الأمور ، بل كان دأبه أن يدهمها قبل أن تتحرك نحوه - ..

لهذا أعلن الرسول الكريم ﷺ أنه سائر بمن يستطيع الخروج معه فى أثر أبى سفيان ورجاله ، وكان نفرٌ من خيرة أصحابه من الأنصار قد باتوا ليلتهم فى المسجد على باب حُجُرات الرسول ﷺ يحرسونه .. وكان فيهم سعد بن عبادة ، وحُباب بن المنذر ، وسعد بن معاذ ، وأوس بن خولى ، وقتادة بن النعمان ، فأمر الرسول ﷺ بلالاً أن ينادى : إن رسول الله يأمركم بطلب عدوِّكم ، ولا يخرجْ معنا إلا مَنْ شهد القتال بالأمس ..

فخرج سعد بن معاذ يأمر قومه بالمسير ، والجراح فى الناس فاشية ، وعامة بنى الأشهل جرحى ، فقال أُسَيْدُ بن حُضَير - وبه سبع جراحات [1]، وهو يريد أن يداويها - : سمعاً وطاعةً لله ورسوله .. وأخذ سلاحه ولم يعرِّج على دواء جروحه [2] .

وهكذا فعل بقية الرجال .. وَثَبوا إلى سلاحهم ، وما عرَّجوا على جراحهم حتى خرج من بنى سلمة أربعون جريحاً ، وبالطفيل بن النعمان وحده ثلاثة عشر جرحاً ، ووافوا رسول الله ﷺ ببئر أبى عنبة إلى رأس ثنيَّة الوداع ، عليهم السلاح وقد صَغَوا [3] لرسول الله ﷺ ، فلما نظر إليهم والجراح فيهم فاشية قال : اللهمَّ ارحمْ بنى سلمة .

١- أى : جِراح .
٢- أى أنه أسرع إلى طاعة أمر الرسول ﷺ مفضِّلاً ذلك على علاج جروحه .
٣- صَغَا : مَالَ ، وصَغَا إلى القوم : كان هواه معهم . وأَصْغَى إلى فلانٍ : أحسنَ الاستماع إليه . وصاغية الرجل : خاصَّتُهُ الميَّالون لاتِّباعه .

وسار أولئك المجاهدون مع الرسول الأكرم ﷺ ، يَتَجارُون [1] من الجراح والإعياء حتى كان الرجل منهم يعجز عن السير فيحمله صاحبه على ظهره..

وسار الرسول ﷺ بالناس وهو مجروح ، فى وجهه أثر الحَلْقتين ، ومشجوجٌ فى جبهته فى أصول الشعر ، ورباعيته قد شظيتْ [2] وشفته قد كُلِمَتْ [3] من باطنها ، فلما رأى طلحةَ بن عبيد الله قال له : أين ترى القوم الآن (يريد المشركين) ؟ قال : هم بالسَّيالة [4] .. فقال رسول الله ﷺ : ذلك الذى ظننتُ ، أما رأيتهم يا طلحة لن ينالوا منَّا مثل أمس حتى يفتح الله مكة علينا .

ولحق الرسول ﷺ بالقوم وهم بحمراء الأسد فى الطريق إلى مكة غير بعيد عن المدينة ، وهم يأتمرون بالرجوع إلى المدينة وصفوان بن أمية ينهاهم عن ذلك ، وغلب رأيه عندما تسامعوا بأن محمداً ﷺ فى أثرهم ، فغادروا الموضع وساروا نحو مكة .

وضرب الرسول ﷺ خيامه فى حمراء الأسد ، وأتاهم سعد بن عبادة بطعام كثير .. وأمر الرسول ﷺ الناس بأن يجمعوا حطباً كثيراً ، ويجعلوه أكواماً متجاورة ، فلما كان منتصف الليل أمر الرسول ﷺ بإيقاد هذه الأكوام

١- أى : يسيرون بصعوبة بالغة .
٢- الرَّبَاعِيَةُ : السِّنُّ بين الثَّنِيَّة والناب ، وهى أربع : رباعيتان فى الفكِّ الأعلى ورباعيتان فى الفكِّ الأسفل . والثَّنِيَّة : إحدى الأسنان الأربع التى فى مقدَّم الفم ؛ اثنتان من فوق واثنتان من تحت . والمراد أن إحدى أسنانه الأمامية كُسِرَتْ فى المعركة .
٣- كُلِمَتْ : جُرِحَتْ .
٤- السَّيالة : موضع .

فاشتعلت خمسمائة نار ، وعلا لهيبها حتى أضاء المعسكر كله والأرض حوله إلى مسافات بعيدة ..

ونظرت الأعراب فى سكون الليل فهالهم المنظر ، وأيقنوا أن محمداً ﷺ سائر فى أثر أبى سفيان بجيش لم يُسْمَعْ بمثله - وهذه نيرانه تدل عليه - .. وأسرع نفرٌ من الأعراب إلى المشركين فى معسكرهم بالخبر ، وجاء معبد بن أبى معبد الخزاعى إلى المشركين وعكرمة بن أبى جهل يَحضُّ الناس على العودة إلى المدينة لاقتحامها ، فقال معبد : ارجعوا إلى مكة والدولة [1] لكم ، فإنى لا آمَنُ إن رجعتم إلى المدينة أن تكون الدولة عليكم . وخرج أبو سفيان فاعتلى تلًّا ونظر إلى حيث أشار الأعراب ؛ فوقع الرعب فى قلبه عندما رأى النيران تضىء الفضاء ، فعاد إلى قومه وأمرهم بتقويض معسكرهم والعودة إلى مكة مسرعين قبل أن يدركهم المسلمون . وبلغ بأبى سفيان الخوف أن قال لبعض الأعراب : علىَّ أن أُوقر لكم أباعِرَكم [2] زبيباً غداً بعكاظ إن لقيتم أصحاب محمد وأخبرتموهم أننا أجمعنا الرجعة إلى المدينة .. قال ذلك حيلةً ومكراً حتى يعود المسلمون إلى المدينة لحمايتها ؛ فيتسع الوقت أمامه للهرب .. وأسرع المشركون عائدين إلى مكة يقتحمون ظلمات الليل من فرط الوَجَل ..

كان ذلك فى منتصف ليلة من ليالى العشر الثانية من شوال للسنة الثالثة من الهجرة / مارس ٦٢٥م .

١- أى : النصر - يقصد انتصارهم فى «أُحد» - .

٢- أباعِر : جمع بعير . والمراد أن أبا سفيان يعدهم بإطعام أباعرهم (إبلهم) بكميّات كبيرة من الزبيب فى اليوم التالى فى «عُكاظ» ؛ إذا هم أبلغوا محمداً ﷺ وأصحابه بنيّة أبى سفيان ورجاله مهاجمة المدينة .

متعوس يحتفل بمتعوس

في تاريخنا العربي أخبار إذا قرأها الإنسان تعجَّب من تصرفات أصحابها وابتعادهم عن كل عقل وتدبير ، ومن هذه الأخبار في تاريخ الأندلس خبر فريد يحكيه ابن حيَّان في كتابه «المتين» عن حفل فريد في بابه أقامه المأمون ابن ذي النون لمناسبة إعذار - أي : ختان - حفيده يحيى الذي سيخلفه على إمارة «طليطلة» متخذاً لقب «القادر» ، وكان المأمون نفسه بلاءً على «طليطلة» والمسلمين ؛ كما سيكون حفيده كارثة على «بلنسية» وأهلها .

ذلك أن هذا الرجل الذي تولى أمر «طليطلة» سنة ١٠٣٧م واستمر يحكمها إلى سنة ١٠٧٥م كان واحداً من هؤلاء الطغاة الأراذل الذين توزَّعوا أرض الأندلس أشلاءً فيما بينهم بعد زوال الخلافة القرطبية في ديسمبر سنة ١٠٣١م. ولم يكن آل ذي النون أهل مُلْك أو إمارة ، وإنما هم كانوا قبيلاً من البربر المستعربين ، استقروا في ناحية قريبة من «طليطلة» تسمى «شنتبرية» ، تقع إلى جنوبها الغربي ، ولم تكن لهم نباهة شأن طوال أيام الخلافة الأموية ..

فلما جاء المنصور محمد بن أبي عامر ووصل إلى سيادة الأندلس اغتصاباً استدنى مَنْ هم على شاكلته من أهل المطامع ورفع مراتبهم

وولّاهم الولايات الرفيعة، فكان من بين مَنِ استدناهم آل ذى النون ، فولّاهم ناحية «شنتبرية» وأطلق أيديهم فى الأموال ، فأصبحوا فى جماعة العامريين أو حزب العامريين ، وهم المسئولون عن ضياع الخلافة .. ثم ضياع الأندلس كله بالتالى .

وعندما أُلغيت الخلافة فى «قرطبة» - على يد شيخها الماكر الأنانى الطامع فى مال الدنيا ، الضَّنين بماله على الناس أبى الحزم بن جهور - انفرد بأمر واليها ابن مَسَرَّة ، ثم صارت إلى شيخ يسمى محمد بن يعيش ، ثم إلى نفرٍ من الرؤساء لم يحسن واحد منهم الولاية ، فاستدعى أهلها آل ذى النون من شنتبرية مؤمّلين أن تكون فيهم قوة عسكرية تحمى بلدهم المُصاقِب [1] لأرض الممالك النصرانية .

ولكن آل ذى النون أخلفوا ظنون الناس جميعاً بما أظهروا من استبداد بالناس واحتجان [2] للأموال ومصانعة - مهينة - للنصارى ، وانتهى أمرهم إلى يحيى بن إسماعيل بن ذى النون ، هذا الذى تلقّب بالمأمون سنة ١٠٣٧م على ما قلناه .

وكان المأمون هذا نكبة على المسلمين ونعمة لأعداء الإسلام ، فقد كان همُّه أن يتحالف مع النصارى ، ويؤدى لهم الإتاوات ، ويتنازل لهم عن الحصون والمعاقل لكى يحارب جيرانه المسلمين ويُنزل بهم الضربات .. وكان المسكين يتربّع على عرش متهالك يقوم على أعواد من قصب ، وكان

١- المصاقب : المجاور .

٢- احتجن المال : جمعه . واحتجن مال غيره : اقتطعه وسرقه .

معدوداً فى أتباع مَلِك «ليون» يدين له بالولاء والطاعة ولا يجسر على مخالفة أمره ، أما مع أهل بلده من المسلمين فكان طاغيةً جبَّاراً وسفَّاكاً للدماء ، وكان كذلك مقبلاً على الخمر ولذَّات نفسه ، ولم ينجب من الولد إلا واحداً سُمِّى إسماعيل ، ثم توفى إسماعيل فى شبابه فصار المرشح للإمارة فتى ضعيف ناقص العقل سُمِّى يحيى أيضاً ثم اتخذ لقب «القادر» فيما بعد ..

كان يحيى هذا قرّة عين جدِّه ، لا يزال يُدَلِّلُهُ ويُهَدْهِدهُ حتى أفسده بالكلية ، ومن مظاهر تدليله إياه حفل إعذاره الذى أقامه له فى قصر الإمارة الذى يقع مكان قصر طليطلة المشهور Le Alcazar de Toledo الذى قام بدور مجيد خلال الحرب الأهلية الإسبانية فى أيامنا هذه .

فتح المأمون الضَّنين بالمال خزائنه وأنفق دون حساب فى هذا الإعذار، أنفق ألوف الألوف فى يوم وليلة ، فقد جدَّد القصر من الداخل وكَسَا حوائطه بالرخام ، وأنشأ فيه مجلساً فخماً بهيجاً يصفه ابن حيَّان – نقلاً عن صاحبه ابن جابر – بأنه كان أجمل مجلس عرفه الناس فى التاريخ ، وقارنه بإيوان كسرى . ودعا ابن ذى النون المئات من كبار الناس من «طليطلة» وما جاورها من البلاد ، وكان من بين المدعُوِّين نفرٌ من كبار دولة «ليون» النصرانية ، وقد تم الختان فى الصباح ، ثم نُصبت الموائد للناس مائدة بعد مائدة ، فأكل الناس على مراتبهم جماعة بعد جماعة .. حتى إذا أتى الليل جاء دَور السُّوقة وصغار الناس فمُدَّت لهم الموائد فى حدائق القصر فأكلوا ما اشتهوا ، واستمرت هذه الموائد توضع وترفع إلى منتصف الليل .

وفى منتصف الليل أُقيمت سهرة حافلة لِعِلْيَة القوم وكانوا مئات بعد

مئات ، وسالت الخمر أنهاراً .. وهذا المأمون المنحوس ينظر إلى أموال الناس تُهدر فى الباطل فيبتسم لنفسه ويحسب أنه أصبح بهذا ملكاً عظيماً ذا بأس مرهوب وسلطان مرغوب .

وما كان المسكين بهذا ولا ذاك ، إنما كان صعلوكاً على عرش من ذهب ، وقد أنفق فى تلك الليلة من الأموال فى معصية الله ما إن أنفق جزءاً منه فى طاعة الله وخدمة المسلمين لظلت «طليطلة» فى أيدى المسلمين ..

ولكنها - ورغم هذا المظهر الخادع من الغنى والجاه - سقطت فى أيدى النصارى - بعد وفاة المأمون بقليل - .. فى نفس السنة التى مات هو فيها (١٠٨٥م) .

نهاية غير عادلة
لرجل عادل

عندما يخطر بالبال اسم لينكولن تخطر معه صورة أمريكا القديمة .. أمريكا عندما كانت أرض الميعاد لكل مضطهد أو جائع فى بلده ، أيام كانت دولة وليدة جديدة تمتاز بكل ما يمتاز به كل وليد جديد من الطهارة والبراءة وسلامة الطويَّة . لم تكن بعد قد تحولت إلى دولة استعمارية ، ولم يتجه رجالها إلى سيادة الدنيا بالسلاح أولاً ، ثم بالمال ثانياً ، ولم يكن الشعب الأمريكى قد ابتُلى بتلك الأدواء التى تتمشَّى فى كيانه من فساد إدارى وفساد اجتماعى ؛ فابتعد عما تعارف الناس عليه من قواعد المروءة والإنسانية .

نعم ، فإبراهام لينكولن آخر الآباء الطيبين الصالحين من مُنشئى الولايات المتحدة ، فهو الذى قال فى خطاب جيتسبرج الذى ألقاه فى ١٩ نوفمبر ١٨٦٣م، والحرب الأهلية على قدم وساق : «منذ سبع وثمانين سنة أقام أجدادنا على أرض هذه القارة شعباً جديداً يقوم على الحرية ويُكرِّس جهوده لتحقيق فكرة وهى أن كل الناس يولدون سواسية ، ونحن الآن مشتبكون فى حرب أهلية كبيرة لنرى إذا كان هذا الشعب أو أى شعب آخر قام على نفس الأساس وكرَّس جهده لتحقيق هذه الغاية من الممكن أن يدوم ...» .

ولقد كان لينكولن صادقاً فيما قال ، لأنه كان ينتسب إلى ذلك الجيل الطيب من منشئي الولايات المتحدة ، وحياته نفسها كانت رمزاً على هذه المعاني التي عبَّر عنها في هذا الخطاب وفي كل خطبه الكبرى ، فقد وُلد فقيراً في ١٢ فبراير ١٨٠٩م في كوخ متواضع جدًّا على بُعد ثلاثة أميال جنوبيّ بلدة هود جنفيل في ولاية كنتاكي الأمريكية. وكان أبوه توماس لينكولن رجلاً فقيراً كادحاً ، ولكنه كان غير مُوفَّق ، فظل عمره كله يَكِدُّ ويكدح ليفلت من براثن الفقر - ولم يكتب الله له ذلك - .. وتوفيت أم لينكولن وهو صغير ، فتزوج أبوه امرأة أخرى ، ومن حُسْن حظه أنها كانت إنسانة كريمة نظرت إلى أبناء زوجها كأنهم أبناؤها .

وهاجر هذا الرجل القليل الحظ بأسرته وأولاده أكثر من مرة حتى استقر في ألينويس ، وهناك حاول إبراهام لينكولن أن يكسب عَيْشَهُ عن طريق أي عمل شريف ، فامتهن كل مهنة تيسَّرت له ، ولكنه كان في نفسه يكره صيد البر والبحر لما في ذلك من قسوة وخداع ، وأَبى أن يحارب الهنود وقال : إنه أشرف لي أن أحارب البعوض الذي يهلكنا طوال الليل من أن أحارب بشراً مثلي لم أرَ منهم شرًّا .

ولم يشأ أن يكون مزارعاً ، وعَلَّمَ نفسه بنفسه حتى كان يسير أميالاً ليستعير كتاباً .. وبالجهد الشاق تمكَّن هذا الشاب الـمُعْدَم من الوصول إلى الجامعة ودراسة الحقوق ، وحصل على إجازته سنة ١٨٣٦م ، وبدأ حياته محامياً ، ولم يلبث أن نجح في مهنته ، وقد اتخذ مركزه مدينة سبرنجفيلد في ولاية ألينويس ، فكان يكسب حوالي ١٢٠٠ دولار في السنة ، وهو نفس

راتب حاكم الولاية فى ذلك الحين ، وكان راتب القاضى ٧٥٠دولاراً .

ثم دخل عالم السياسة أيام الرئيس جاكسون وكان يتفق معه فى الإيمان بفضائل الرجل العادى ، وكان اشتراكيًا إلى حد بعيد فى تفكيره ، فكان يرى أن الدولة ينبغى أن تتولى من مصالح الجماعة كل عمل لا يستطيعه الأفراد أو لا يحسنون إدارته لخير الجماعة كلها .

وعن طريق السياسة دخل مجلس الشيوخ سنة ١٨٤٧م ، واقترح أن تقوم حكومة منطقة كولومبيا – وهى المنطقة المحايدة التى تقوم فيها العاصمة واشنطون – بتحرير العبيد الذين يعيشون فيها شيئاً فشيئاً ، ولم يُوفَّق فى ذلك ، ولكن تحرير العبيد ظل حلمه المستمر طوال حياته السياسية كلها .

ثم لم يلبث لينكولن أن انتُخب رئيساً للولايات المتحدة سنة ١٨٦٠م، وكانت مسألة الاعتراف بالرِّقّ قضية اليوم فى الولايات المتحدة ، فقد كانت ولايات الجنوب كلها تحت رحمة نفر من الرأسماليين الذين أقاموا ثرواتهم وقوتهم على أساس الاتجار فى الرقيق المُشترَى من إفريقيا وتشغيله كأنه الحيوان فى المزارع . ولقد كان الزنجى يعامل معاملة الحيوان ، ويباع كما يباع أىّ حيوان ، ويُطلق عليه الرصاص إذا أَسنَّ وعجزَ عن العمل – كما يُعدم أى حصان أو بغل عجوز مريض – ..

وعندما أعلن لينكولن أنه ضد سياسة إباحة الرقيق أعلنت كارولينا الجنوبية انفصالها عن الولايات المتحدة ، وأعقبتها ولايات أخرى كثيرة وألَّفت فيما بينها «حِلْف الولايات الأمريكية» .

وخاض لينكولن معركة الوحدة القومية على أساس تحرير العبيد ، وظلت الحرب مستمرة ثمانى سنوات ، وانتهت بانتصار الشمال والمحافظة على الوحدة وإلغاء الرِّقّ واستعباد البشر ، ورفض كذلك احتلال ولايات الجنوب المنهزمة احتلالاً عسكريًا .

وفى منتصف ليلة الرابع عشر من أبريل ١٨٦٥م ، كان لينكولن فى مقصورته يتفرج على مسرحية فى مسرح فورد فى واشنطن . وتسلل شاب أمريكى من أبناء الجنوب إلى المسرح - وقد أقسم ليقتلنَّ إبراهام لينكولن عقاباً له على تحرير العبيد - .. كان هذا الشاب يسمى جون ويلكس بوث ، وأطلق الرصاص على الرجل الذى حافظ على وحدة بلده ورفض استذلال البشر ، وكانت الإصابة قاتلة ، فقد توفى لينكولن فى صباح اليوم التالى .

الغازى مراد الأول

شهد النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى توسُّعاً عظيماً فى النشاط العسكرى العثمانى ، ويرتبط هذا التوسع باسم واحد من أكبر أمراء بنى عثمان فى عصر الفتوح الأولى ، المعروف بعصر الغزاة وهو مراد الأول ابن أورخان بن عثمان مؤسس دولة بنى عثمان .

تولى مراد الأول عرش آل عثمان فى سنة ١٣٦٢م فى الغالب ، واستمر يحكم **سبعاً وعشرين** سنة إلى أن استُشهد فى ميدان الشرف والجهاد سنة ١٣٨٩م..

كانت الفتوح العثمانية أيام عثمان وأورخان مقتصرة على آسيا الصغرى ، وقد تم فى عصرهما الاستيلاء على كل بلاد الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى ، وأصبحت «بروسَّة» على بحر مرمرة عاصمة الدولة بعد «نيقية» .

وتطلَّع مراد وأصحابه من الغزاة إلى ما وراء البحر ، وفكَّروا فى عبوره ومواصلة الجهاد والغزو فى أرض البلقان .

كان الميدان مفتوحاً أمامهم ، فقد كانت بلاد البلقان مقسَّمة مُتنازَعاً عليها بين دول وإمارات شتَّى : كانت هناك الدولة البيزنطية تحاول المحافظة

على ما بقى لها من ممتلكات هناك وخاصة غاليبولى وأدرنة ، وكانت البندقية تسيطر على معظم الساحل الغربى لبلاد البلقان ، وتملك مواقع كثيرة على الساحل الشرقى ، وكانت تحتكر التجارة احتكاراً تامًّا وتربح أموالاً طائلة تكترى بها الجند المرتزقة للدفاع عن ممتلكاتها ، وكانت هناك مملكة الصِّرب التى ارتفع شأنها لوقت قصير أيام مَلِكها إسطفان دوشان الذى توفى سنة ١٣٣٥م ، ثم عادت فضعفت وتفككت من بعده ، وكانت مملكة البلغار حتى تفككت بعد سنة ١٣٦٥م إلى ثلاث إمارات صغيرة .. وكانت تلك الدول والإمارات تتصارع فيما بينها دون توقف .

لهذا جمع مراد الأول الغازى المتحمس رجاله وعبر بحر إيجه واستولى على غاليبولى سنة ١٣٥٤م ، وبدأ بذلك فى تاريخ الدولة العثمانية عصر جديد ؛ فقد رأى مراد أن من واجبه نحو الإسلام وآل عثمان أن يتم فتح البلقان ويجعله أرضاً إسلامية ، فحشد رجاله وتقدَّم إلى السهل واستولى على أدرنة سنة ١٣٦٢م ، ونقل إليها عاصمة الدولة من بروسَّة ، وبهذا تحولت دولة آل عثمان من دولة آسيوية إلى دولة أوروبية آسيوية ، وزاد حماس مراد الأول فخاض مع البيزنطيين معركة طاحنة وانتزع «فيليبوبوليس» التى تسمى «بلوفديف» سنة ١٣٦٣م ، وبدأ يتطلع إلى مهاجمة دولة الصِّرب ..

وأحس رجالها بما يدبَّر لهم ؛ فتحالفت إماراتهم فيما بينها ، وانضمت إليهم فرق من المقاتلين من معظم نواحى شرقىِّ أوروبا ودعوا إلى حرب صليبية لإيقاف تقدُّم المسلمين ، وأرسلت إليهم البندقية أسطولاً بقيادة أماديو دى سافويا هاجم غاليبولى سنة ١٣٦٦م وانتزعها من يد الأتراك ،

ولكن العثمانيين ما لبثوا أن أوقعوا بهؤلاء الصليبيين هزيمة كبرى وشتّتوا شملهم واستعادوا غاليبولى ، ونتيجة لهذا النصر أصبح إمبراطور البيزنطيين ومَلِكا الصِّرب وبلغاريا أتباعاً لأمير آل عثمان يدفعون له الجزية .

وشُغل الغثمانيون بعد ذلك عشر سنوات فى تثبيت أقدامهم فيما دان لهم من البلقان وفى آسيا الصغرى ، وكان لابد لمراد من مَدَدٍ جديد من الجنود والأموال ليواصل الجهاد ، فعقد معاهدات ومصاهرات مع نفرٍ من أمراء آسيا الصغرى وكانوا أتراكاً سلاجقة وخصل على المدد الذى أراد .

وتقدَّم الغازى المجاهد فاستولى على «صوفيا» ثم «نيش» ، وبهذا دخل الأتراك بلاد البوسنة والأفلاق التى تسمى «ولاشيا» وهى اليوم جزء من رومانيا ، وحاول البوسنيون والأفلاقيون إيقاف التدفق الإسلامى فعجزوا ، وإزاء ذلك التقدم تجمعت كل عناصر المسيحية فى البلقان وقررت أن توقف هذا الخطر ، وجمعوا كل ما استطاعوا من قوة وتقدموا وضربوا معسكرهم فى «كوسوفو» التى يسميها الأتراك «قوصوه» .

وأحس مراد بأن المعركة القادمة حاسمة فجمع رجاله وخَطَبهم وطلب إلى من كان فى المعسكر من المجاهدين الشيوخ أن يعظوا الناس ويَحضُّوهم على الجهاد ، وتقدَّم بمن معه وضرب معسكره غير بعيد عن معسكر العدو ، وقضى الرجال اليوم السابق على المعركة فى استكمال عُدَّتهم وتدريبهم على القتال ، وفى الليل أقاموا الصلوات واستمعوا **القرآن الكريم** إلى ما بعد منتصف الليل ، ثم ناموا وهم واثقون من النصر ..

وقال شاعر تركى - فيما بعد - إن مراداً رأى فى المنام وكأن رسول الله ﷺ يناوله غصن شجرة مُورق ويقول له : تَقدَّمْ يا مراد ؛ فسيفتح الله عليك البلاد بهذا السيف الذى كان سيف عمِّى حمزة الشهيد .

وفى الصباح دارت المعركة واستمرت طوال النهار وجانباً من الليل ، وكما رأى مراد فى منامه كان النصر عظيماً وحاسماً ، وفى ميدان «قوصوه» انتشرت جثث القتلى والشهداء ..

وصلَّى الأمير مراد الأول العشاء ، ثم قضى ساعات طويلة يتهجَّد ، ثم نهض قرابة نصف الليل مع نفر من رجاله ما بين محاربين وشيوخ ليطوفوا بميدان المعركة لعلهم يجدون بين شهداء المسلمين رجلاً ما زال حيًا ، أو يطلب شربة ماء قبل أن يلفظ النفس الأخير ، ووجدوا بالفعل جرحى مسلمين كثيرين أنقذوهم أو سَقَوْهم ماءً ، وبينما كان الناس يسقون أحد الجرحى نهض جريح نصرانى وطعن الأمير المجاهد طعنةً نجلاء ثم سقط ميّتاً .

وهكذا استُشهد مراد الأول .. ولحق بحمزة سيِّد الشهداء .

أوستر ليتز
(٢ ديسمبر ١٨٠٥م)

فى أوائل سنة ١٨٠١م وقع صلح إميان بين فرنسا وإنجلترا .. بمقتضى هذا الصلح بدأت هُدنة بين نابليون وبريطانيا ، فأُجلِيت الحملة الفرنسية عن مصر ، وكان على إنجلترا أن تخلى مالطة وتعترف بمركز نابليون فى الأراضى المنخفضة وتبعيَّتها لفرنسا . بهذا الصلح أنقذت إنجلترا ما كان يسمى بإمبراطوريتها فى الهند ، ولكنها سَلَّمت البحر الأبيض لفرنسا بتنازلها عن مالطة ، ثم إن وجود نابليون فى الأراضى المنخفضة كان يثير مخاوفها .

ثم إن إنجلترا زُوِّعت على أثر مقال نشره الجنرال سباستيان سفير فرنسا فى الآستانة فى مجلة Le Moniteur يقول فيه إن ستة آلاف رجل قادرون على استعادة مصر ، ففهمت إنجلترا أن فرنسا ما تزال تنظر إلى الشرق ، فتوقفت إنجلترا عن إخلاء مالطة وتسليمها ، وأخذت مخاوفها تتزايد من ناحية نابليون وتصورت أنها إذا أعلنت عليه الحرب تمكَّنت من كسب النمسا والروسيا (روسيا) والسويد إلى جانبها ، واستطاعت أن تدخل مع نابليون جولة أخرى من الصراع ، فسارع أدينجتون رئيس الوزارة البريطانية فأعلن الحرب على فرنسا فى ١٨ مايو سنة ١٨٠٣م ..

وعلى أثر ذلك قرر نابليون غزو بريطانيا ، وأعلن ما سمى بالحصار القارِىّ وحَرَّم على البلاد التابعة له أو الحليفة معه أن تفتح موانيها للتجارة

البريطانية .. كانت تلك ضربة أليمة لانجلترا ، لأن هذا البلد - الذى لم يكن سكانه يزيدون إذْ ذاك على العشرة ملايين إلا قليلاً - كان يسيطر على أكثر بحار الدنيا ويحتكر التجارة مع أمريكا وآسيا وسواحل إفريقيا ، ويجنى من وراء ذلك أرباحاً لا تُصَدَّق .

وبمجرد إعلان الحرب تحركت السويد والنمسا مستجيبتين للحلف مع بريطانيا ضد نابليون ، ولم تلبث روسيا أن انضمت إليهما ، فوجد نابليون نفسه مهدداً بخطر جسيم ، ووجد أنه لا مفرَّ مما لا مفرَّ منه ؛ فإلى جانب حراسة القنال الإنجليزى وشواطئ أوروبا الشمالية وسواحل فرنسا وإسبانيا والبرتغال من أى عدوان إنجليزى ، كان عليه - إلى جانب ذلك - أن يخوض معركة ميدانها وسط أوروبا كله .

وعلى عادة بريطانيا كانت خطتها أن تجعل حلفاءها يخوضون المعارك وتكتفى هى بالضربات البحرية على السواحل ، وتقديم المال عوناً لحلفائها لينفقوا على جيوشهم . وفتحت انجلترا خزانتها ؛ فأعلنت أنها تدفع لحلفائها مليوناً ومائتى وخمسين ألف جنيه فى مقابل كل مائة ألف جندى يرسلونهم إلى الميدان .

وكان نابليون كعادته سريعاً إلى العمل ؛ فاحتل هانوفر ونابولى لكى يمنع الإنجليز من دخول بحر البلطيق ومن الاقتراب من السواحل الإيطالية، ثم رفع قوات جيشه فى الأراضى المنخفضة إلى ٧٦٠٠٠ رجل ، وفرض على هولندا وهانوفر أن تقوما بنفقات هذا الجيش الضخم تضاف إلى ذلك قوة من ٢٤٠٠٠ رجل فى بلجيكا وشمال فرنسا فأصبحت عدة الجيش

المواجه لبريطانيا ١٠٠٠٠٠ رجل ، وعهدَ إلى هذه القوة الضخمة بالتعاون مع الأسطول الفرنسى فى إبعاد الإنجليز وسفنهم عن شواطئ أوروبا الغربية .

اطمأن نابليون من ناحية الغرب ؛ فأخذ يرسم خططه لتحطيم خصومه فى القارة الأوروبية قبل أن يتحول حلفهم مع بريطانيا إلى قوة واحدة متلاحمة فيضطر إلى خوض الحرب على جبهتين ؛ وسارع فأعلن فرنسا وممتلكاتها فى أوروبا (إسبانيا والبرتغال وإيطاليا والألزاس والأراضى المنخفضة) إمبراطوريةً فى مايو سنة ١٨٠٤م، وتُوِّجَ هو إمبراطوراً فى ديسمبر من نفس السنة ، ثم حوَّل إيطاليا إلى مملكة ، وجعل نفسه مَلِكاً عليها فى مارس ١٨٠٥م ، وأخذ نابليون يعمل على جمع أكبر قدر من المال ليمول جيوشاً لا تقل عدتها عن ثلاثمائة ألف رجل ، منها مائة ألف فى مواجهة بريطانيا، ومائتا ألف قرر أن يقودها مع قوّاده العظام فى معركة هائلة مع السويد والنمسا وروسيا ، ثم انضمت إليهم بروسيا ، وبلغ به الحرص على الحصول على المال أن باع لويزيانا وهى ناحية مصبِّ المسيسبِّى فى أمريكا الشمالية – وكانت مِلْكاً لفرنسا – بمبلغ ١١,٢٥٠٠٠٠ دولار .

وفى أكتوبر سنة ١٨٠٥م أقام نابليون فى معسكره فى «أوستاند» على ساحل بلجيكا ، كأنما أراد أن يرقب بعينيه عدوَّته اللدود بريطانيا ، وأخذ يرسم الخطة التى يستطيع بها أن يقود ٢٠٠٠٠٠ فى معركة هائلة ضد إمبراطوريتين (النمسا ، وروسيا) ، ومملكتين (السويد ، وبروسيا) . كانت تلك أول مرة فى التاريخ يقود فيها رجل واحد جيشاً من مائتى ألف رجل ، ولكن جيش نابليون كان يتألف معظمه من جنود محترفين ، خاضوا المعارك وكَسَبُوها

خلال السنوات الماضية ، وآخر انتصاراتهم كانت «يينا» و«أورشتات» ، وكان لديه قواد لا يُشَقُّ لهم غبار خِبرةً وشجاعةً من أمثال : برنادوت ، وينى ، ومورا ، ويوجين دى بوهارنيه ، وماسينا .

وفى ليلة ١٩ أكتوبر سنة ١٨٠٥م نادى الإمبراطور نابليون كُتَّابَهُ ووضع أمامهم خارطة أوروبا .. كانت خطته قد اكتملت ، فأخذ يُمْلى على الكُتَّاب واحداً تِلْوَ الآخر كل تفاصيل المعارك المقبلة وما يلزم لها .. أعاد تنظيم الجيش الفرنسى ، ورسم لكل قائد خطة سيره وعُدَّة ما يكون تحت يده من الجند وما يلزم لهم من المئونة والذخائر ، وحَسَب الزمن باليوم والساعة ، وأخذ يُمْلى أربعة أيام بلياليها وهو يتمشى ذهاباً وجِيئةً فى غرفته ، وتَبدَّل الكتبة واحداً بعد واحد وهو صامد يملى ويملى ويَطْعَم ويَشْرَب وهو على قدميه ؛ وعيناه على الخريطة .. أَمْلَى فوق الأربعمائة صفحة من التعليمات .. وفى ليلة ٢٤ أكتوبر أَمْلَى فوق الثمانين أمراً لقوَّاده وحكَّامه ..

وفى منتصف الليل - بعد أن وقَّع آخر أمر - استلقى على فراشه بملابسه ، وقال: «لن يقوم أحد فى وجهى بعد الآن» .

وكما قال ؛ كانت جيوشه قد كسبت معارك كبرى : أولم وأوكمول ثم أوسترليتز وهى قمة انتصاراته ودرة أعماله العسكرية العبقرية فى ٢ ديسمبر ١٨٠٥م . وفى ٦ ديسمبر ١٨٠٥م أَمْلَى على خصومه جميعاً شروط الصلح والهدنة كما تصوَّرها فى «أوستاند» .

بيت حاسم من الشعر

النقائض ضَرْبٌ [1] من الشعر العربىّ ازدهر خلال العصر الأُموىّ ، ويُراد بها مبارزات شعرية بين الشعراء ، يحاول كل منهم أن يُثبت فيها أنه أشعر من صاحبه وأَقْدر منه . وإذا كان الأمر أمر مبارزة بالشعر فمعناه أن هذا الشعر كان كله هجاءً وفخراً ، فالشاعر يهجو صاحبه أى : يبيِّن مثالبه [2] ومثالب قومه ، ويفخر عليه بفضائل نفسه وفضائل قومه ، فينبرى الشاعر الآخر ليردَّ على نقيضة صاحبه - أى : قصيدته - بنقيضة يقذع [3] فيها فى هجو صاحبه وقومه ما شاء .

وكانت هذه النقائض تُتْلَى فى الأسواق ومجامع الناس ، وأشهرها ما أُلْقى فى مِرْبَد البصرة ، وكان هذا المِربد - وأصله سوق الدواب - مكان تجمُّع الناس لسماع هذه النقائض أو «الفُرجة» على كل من الشاعرين وهو يُلْقِى نقيضته .. ثم يحكمون بينهما بإظهار الإعجاب بالقصيدة التى تبدو لهم أكثر إقذاعاً وأشدها إيلاماً للخصم .

والطريف أن هذه النقائض بكل ما كان يقال فيها من فُحْشٍ وسِبَابٍ

١- أى : نوع .
٢- مَثَالِب : عيوب .
٣- قَذَعَهُ : شتمه بكلام قبيح .

كانت تمثيلاً كلها ، فليس من المفترض مثلاً أن يكون الفرزدق عدوًّا لجرير حتى يهجوه ، ولم تكن بين الأخطل وهذين (الفرزدق وجرير) عداوة شخصية لكى يَهْجُوَهُما معاً ، ولكنهم جميعاً كانوا يَتصَنَّعون العداوة ، ويحاول كل منهم أن يُظْهِرَ صاحبه فى أبشع صورة ، لا لأنه يكرهه بل لأنه يريد أن يُظهر أنه أشعر منه وأقدَر على الكلام .

كانت النقائض - إذن - نوعاً من التسلية لجأ إليها أهل العصر الأموى ليُسَرُّوا عن أنفسهم ويقضوا وقتاً جميلاً كما نقول .. كانت هى مسرح العصر أو شاشته الفضية ، أو قل : كانت مبارياته الرياضية .

فكما يتجمع الناس أُلوفاً اليوم لمشاهدة مباراة فى كرة القدم ، وكل جماعة منهم تؤيد فريقاً من اللاعبين ، وكل فريق يحاول أن يصيب مرمى خصمه ويبذل فى ذلك أقصى جهده ، لا لأنه يكره خصمه ، بل لكى يثبت أنه أقدر على اللعب وأمهر ، فكذلك كان الناس يتسلَّون بهذه النقائض ويتناقلونها على أنها لون من التسلية أو المزاح .

وهذا لا يمنع من القول بأنه كان للنقائض جانبها السياسى ، فقد كان الراعى شاعر «مُضَر» ، وكان جرير شاعر «قَيْس» ، وكان بنو أمية يحرصون على الإيقاع بين الفريقين لكى يتنافس الفريقان فى كَسْب رضا البيت الحاكم ، ولكى يفضح كل فريق خصمه ولا يبقى بعيداً عن كل عيب إلا بنو أمية سادة الجميع .

وفى أثناء معركة النقائض هذه وقعت حوادث وطرائف ، لأننا - كما قلنا - فى مسرح هو أقرب إلى الهزل منه إلى الجد ، وسنتخيَّر منها واحدة

تدخل فى نطاق هذه السلسلة من أحاديث منتصف الليل ؛ لأنها وقعت فى منتصف الليل - وإن بدأت بدايتها فى النهار - ..

وسنوجز القصة فنقول : إن الشاعر أبا جندل بن عُبيد الراعى دخل ميدان النقائض عن طريق المصادفة ، فقد نزل البصرة يوماً فدعاه صاحبه عرادة النُّميرى إلى طعام عنده ، فلما أكل الراعى وأخذت الخمر منه قال عرادة : يا أبا جندل ، قل شعراً تفضِّل به الفرزدق على جرير . ولم يزل يزيِّن له الأمر حتى قال :

يَا صَاحِبَىَّ دَنَا الأَصِيلُ فَسِيرَا

غَلَبَ الفَرَزْدَقُ فِى الهِجَاءِ جَرِيرَا

وكان الراعى شاعر مُضَر ؛ فلامه جرير وقال له : إننى وابن عمى هذا[1] نَسْتَبُّ [2] صَباحَ مساء ، وما عليك غلبة المغلوب ولا لك غلبة الغالب ، فإما أن تَدَعَنِى أنا وصاحبى ، وإما أن يكون وجهُ منك إلىَّ (أى : تُغَلِّبنى عليه)؛ فإنى أحق بذلك منك لانقطاعى إلى «قَيْسٍ» وذَبِّى [3] عنهم .

فتظاهرَ الراعى بأنه يوافقه ، وواعده اللقاء غداً فى المِرْبَد ، وتقابلا ، فبينما هما يتحدثان رآهما جندل بن عُبيد الراعى فغضب إذ رأى جريراً ينال من أبيه ، فأقبل مسرعاً وقال لأبيه : ما لكَ يراك الناس واقفاً مع كلب من «كُلَيب» ؟!

١- أى : الفرزدق .
٢- أى : يَسُبُّ كلٌّ منَّا الآخر (يقصد الهجاء بالشعر) .
٣- أى : دفاعى عن قبيلة « قَيس » .

فأغضبت هذه الكلمة جريراً ، فأقسم لَيَنْظِمَنَّ نقيضةً فى هجاء عُبيد الراعى وقبيلته «نُمير» تضعه وتضعهم فى الأرض حتى يصبحوا ضُحْكَة [1] العرب جميعاً .

وذهب فى الليل إلى داره وهو لا يرى طريقه من شدة الغضب وقال لقومه : أَسْرِجُوا لى . فأَسْرَجُوا له سراجاً [2] ، وتناول ورقاً ومضى يؤلف نقيضته فى الراعى وبنى نُمير ، ومطلعها :

أَقِلّــى اللَّوْمَ عَــاذِلَ والعِتَـابَـا
وقُولى - إنْ أَصَبْتُ - : لَقَدْ أَصَابَا

وظل يكتب ويكتب ... حتى إذا كان منتصف الليل فتح الله عليه بهذا البيت :

فَغُضَّ الطَّـرْفَ إنَّكَ مِـنْ نُمَيْـرٍ
فَـلا كَعْبـاً بَلَغْـتَ ولا كِلَابَـا [3]

وسَرَّهُ هذا البيت فجعله ختام قصيدته وأطفأ السراج ونام ، ولم يَطِرْ [4] بيت من الشعر فى نواحى شبه الجزيرة كهذا البيت – الذى أُلهمه الشاعر فى منتصف الليل – .

١- الضُّحْكَة : مَنْ يُكثر الناس الضحك منه . والأُضحوكة : كل ما يُضْحَكُ منه .
٢- السِّراج : المصباح ، وأَسْرَجَ السِّراج : أَوْقَدَهُ .
٣- نُمير ، وكَعْب ، وكِلَاب : أسماء قبائل عربية .
٤- أى : لم يشتهر بيت مثله .

لمحة عبقرية جلبت
على الإنسانية خيراً عميماً

نحن فى ڤيينا فى فبراير ١٩٣٢م ..

البردُ قارسٌ فى ذلك البلد الجميل ، والليل صامتٌ بَهيمٌ [1] فى شوارعه ، وقد لجأ الناس إلى البيوت مبكّرين ليستكِنُّوا من لَسْع البرد غير المأمون ..

ولكن دار الصيدلانى جيرهارد دوماك عامرة بالحركة والنشاط .. إن ابنه الصغير مريض ، أصابته نزلة برد حادّة تطورت إلى التهاب رئوىّ خطير والأب الصيدلانى حائر : ماذا يصنع والحُمَّى تتزايد ، والعرق يتصبَّبُ على جسد الطفل ، وقُواه تضعف حيناً بعد حين ؟ .. فى ذلك الحين كان العلاج يقتصر على تقوية الجسد وإنزال درجة الحرارة بكمَّادات الماء البارد وإعطاء المريض جرعات من «الكينين» تتقوى بها كُرات الدم البيضاء على كفاح [2] جراثيم المرض المُحيق . لم نكن قد دخلنا بَعْدُ فى عصر الأدوية القوية المباشرة التى تهاجم المرض نفسه وتقضى على جراثيمه .

كان العلاج يقتصر على تقوية الجسد ومقاومة الحرارة وتغذية المريض ليستطيع الصمود .

ولهذا فإن الطبيب المعالج للطفل الصغير كتب دواءه المتواضع وأعطى

١- ليل بهيم ، أى : شديد الظلام .
٢- أى : مقاومة .

تعليماته ومضى تاركاً الطفل الصغير يصارع الموت ، وما كان مستطيعاً أكثر من ذلك .

وكانت صيدلية جيرهارد دوماك تقع أسفل البيت ، فنزل الصيدلاني إلى صيدليته ، ومضى يتأمل صفوف العلب القاشانية [1] المستديرة ، وكلٌّ منها يحمل اسم المُركَّب الكيميائى الذى فيها ، وفتح الرجل فى حيرته الدواليب كلها ومضى يتطلع فيها واحدةً واحدة ، لعل الرؤية تساعده على اكتشاف دواء يعين به الطفل المسكين .

وفى ركن من أحد الدواليب وقعت عين الرجل على علبة كُتِبَ عليها «سلفانيوميد» ، وثبَّت نظره عليها ، وخطرت بباله فكرة كأنها الإلهام ..

هذه المادة كانت قليلة الاستعمال - وخاصة فى أوروبا - .. كانوا يستعملونها فى بعض البلاد الحارة لمقاومة جراثيم بعض الأمراض المُغدية.. وكان معظم استعمالها من اختصاص البياطرة فى علاج الحيوان ؛ لأن الرأى السائد أنها خطرة على أنسجة الإنسان ، ولهذا فقد كانت تُحسب من السموم..

وتذكَّر الرجل أنه منذ سنتين كان قد توصَّل إلى تركيب دواء منها يسمى البرونتوسيل ، جرَّبوه فى معالجة بعض حالات الحُمَّى المجهولة النوع فكان النجاح قليلاً .. كان قد قام بهذه التجارب مع صاحبه جوزيف كلارز ، ثم أقلعا عنها بعد قليل .

وتذكَّر كذلك أن الأوراق التى دُوِّنَتْ فيها معادلات تلك التجارب وحساباتها موجودة فى أحد أدراج مكتب صغير هنا .. أسرع فاستخرجها

١- أى : المصنوعة من القاشانى (القيشانى) .

ومضى يقرأ ، ويقرأ ، وأخيراً توقَّف عند ورقة خُيِّل إليه أنها هى التى يبحث عنها .

الورقة الخاصة بمُركَّب من مُرَكَّبات السَّلفا يمكن أن يتناوله الإنسان دون خطر على صحته ويستطيع فى نفس الوقت إيقاف سير الحُمَّى ..

ولكن .. أهى هذه ؟ .. أم تكون هذه التركيبة سُمًّا قاتلاً ؟؟

وبينما هو يبحث عن مُركَّبات هذا الدواء كانت زوجته قد هبطت إلى الصيدلية وصاحت : أسرعْ .. إن فريتز قد غاب عن الوجود .

ولم يسمع شيئاً مما قالت ، ومضى يجمِّع الأجزاء .. ثم وزنها وزناً دقيقاً ، وصنع التركيبة كما جاءت فى الورقة .. وأمسك بها فى يده وقال لنفسه : قد تكون هذه هى الدواء الشافى ، وقد تكون سُمًّا .. لا أدرى .

قالت له زوجته : لا تُعْطِ الولد شيئاً لا تعرفه .

فقال لها : ألم تقولى إنه غاب عن الوجود ؟ .. تلك هى «الكوما» التى تسبق الموت .. الولد يا ماتيلدا ميت الآن ، وهذا الدواء لن يزيده موتاً ..

قالت : لا تغامرْ بحياة ابنك .

وكان وجهه قد جمد ، لأن فكرة ثابتة كانت قد استقرت فى رأسه : لابد أن أُجرِّب .. لن نخسر شيئاً .. الولد فى سياق الموت .. لأُحاوِلْ ؛ فَمَنْ يدرى ؟؟..

وأخذ الدواء وصعد ، وجَسَّ نبض الطفل وابتسم لنفسه وقال : ما زال هناك أمل .. لأُعطِينَّه الدواء ثم لأعملنَّ على إنزال هذه الحُمَّى ..

وأعطاه جرعة : فتح فمه بصعوبة ووضع فيه الدواء .. أعطاه ٢٠

سنتيمتراً مكعباً ، ووضع بقية الدواء على المنضدة ، ثم أخذ يضع على جبين الطفل ورأسه فوطة مبلَّلة يستبدلها كل خمس دقائق .. ثم نهض ففتح النافذة وأخذ من خارجها قطعاً من الثلج ، ووضعها فى الفوطة ووضعها على رأس الصبى ، ثم جلس أمامه ينظر إليه والعرق يتصبَّب منه دون توقف .

وكان يقيس النبض كل عشر دقائق .. وبعد ساعتين كان نبض الطفل يقوى وينتظم ..

ثم أعطاه ٢٠ سنتيمتراً مكعباً أخرى ..

وعند الفجر مرَّ بيده على جبين الطفل : لقد بدأت الحُمَّى تهبط ..

وقاس الحرارة بالترمومتر : ٣٨ درجة .

وفى الصباح كانت الحرارة قد نزلت إلى ٣٧ درجة ، وفتح الطفل عينيه وابتسم ..

لقد نجا ...

واكتشف العلم أهمية السَّلفا ومركَّباتها ..

وبدأ فى تاريخ الطب عصر جديد ..

عصر الأدوية القوية المباشرة التى تهاجم الداء فى صميمه ..

كان ذلك فى منتصف ليلة باردة قاسية من فبراير ١٩٣٢م.

عِبرة وفاة أمير عظيم

يُعدُّ عبد الرحمن بن هشام الملقَّب بالأوسط من أعاظم أمراء بنى أمية الأندلسيين ، فقد كان رجلاً ذكيًا نشيطاً مدركاً لمسئوليته كأمير للأندلس مواظباً على العمل فى الدفاع عن بلده وإسعاد أهلها ، وكان فى نفس الوقت رجلاً لطيف الطبع مُحبًا لمتاع الدنيا ، مقبلاً عليها فى اعتدال ، فأحبه الناس واستظرفوه ، وخَفَّ حكمه عليهم ، وهو صاحب «زِرْياب» المغنِّى و«يحيى بن حَكَم الغزال» الشاعر الساخر الظريف و«عباس بن فرناس» المفكر المخترع الذى كان أول من حاول الطيران .

وقد أصيب هذا الأمير المحبوب ، وهو فى التاسعة والخمسين من عمره بعِلَّةٍ طاوَلَتْهُ [1] بعد ذلك ثلاث سنوات حتى أنهكت قواه ، وقد قرأت أوصافه أثناء هذه العِلَّة عند كبار مؤرخى الأندلس ؛ فغلب على ظَنِّى أنها سرطان فى الكبد .

وفى اليوم الأخير من حياته - يوم الأربعاء الرابع من ربيع الآخر سنة ٢٣٨هـ / الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ٨٥٢م - أحسَّ الأمير خِفَّةً فى نفسه ؛ فحسب أنه بدأ يتعافى ، فطلب إلى خدمه أن يحملوه إلى أعلى

١- أى : لازمته .

القصر ، إلى عِلْية - أى : ما نسميه نحن «ڤراندا» - مشرفة على «قرطبة» وما حولها ، فلما استراح على سريره هناك نظر فرأى مزارع الرَّبَض [1] الجنوبى لقرطبة قُدَّامَ [2] القصر ..

وأخذ يتأمل نهر الوادى الكبير ينساب تحت قدميه ، والسفن تجرى فيه صاعدة ونازلة ، فاستراحت نفسه وزاد شعوره بالشفاء وأمله فيه ..

وأخذ يستمع فى سرور إلى أحاديث حاشيته حوله ، ويتسلَّى بما يَقُصُّون من الأخبار والنوادر لِيُسَرُّوا بها عنه ..

ووقعت عينه من بعيد على غنم تَرْعى ، وراعيها جالس يَرْقُبُها مستظلًّا بِفَىْءِ شجرةٍ وارفة [3] ، فتَنَفَّسَ الصُّعَداء ، وأرسل عَبْرَتَهُ [4] يبكى ، وقال:

- وَدِدْتُ - واللهِ - أن أكون مكان ذلك الراعى ، ولا أَنْشَبُ [5] فيما نَشِبْتُ من الدنيا ، ولا أتَقلَّد من أمور الناس ما تقلَّدت .

ثم دعا حاجبه - أى : رئيس وزرائه - عيسى بن شهيد ، وقال له :

- إن بعض كرائمنا [6] سألننا تجديد العهد لديهنَّ بالركوب معهنَّ للنزهة على مقتضى العادة ، فاخرجْ من فَوْرِكَ فانظرْ فيما يُحتاج

١- الرَّبَض : ما حول المدينة .
٢- قُدَّام : أمام .
٣- الفَىْءُ : الظلّ . وشجرة وارفة ، أى : ناضرة شديدة الخضرة .
٤- الصُّعَداء : المشقَّة . وتَنفَّسَ الصُّعَداء ، أى : تَنفَّسَ نَفَساً ممدوداً مع تأوُّه (كناية عن الضِّيق) . والعَبْرَة : الدَّمعة .
٥- نَشِبَ فى الشىء : عَلِقَ فيه . والمراد أنه يتمنَّى أن لو كان بعيداً عن السُّلطة ومشكلاتها .
٦- كرائم (جمع كريمة) ، وكريمة الرجل : ابنته .

إليه لِنُزْهتِنا على أتمِّ رسومها ، وأَعْجِلْ [1] بذلك ، فإنا متحركون صبيحةَ غدٍ بإذن الله .

فمضى عيسى لشأنه ، وقال الأمير للراشدة - أى : كبيرة الخدم - القائمة على رأسه :

- ادْخُلى إلى خازنة الكسوة ، فَمُرِيهَا بأن تَتخيَّر لنا من الوَشْى رداءً يوسفيًّا من أفخر نوعه ، فَجِيئينا به .

(واليوسفىُّ كان قماشاً رقيقاً من القطن منسوجاً ومنقوشاً بخيوط الحرير) .

ثم أَمَرَ بأن يرسلوا القماش إلى عرِّيف (كبير) الخياطين بالقصر ، فَلْيُقَطِّعْهُ ثوباً لِلَبُوسِه ، ويتخذ منه قَلَنْسُوَةً [2] لحاجبه عيسى كيما يلبساه جميعاً لركوبهما صبيحةَ غدٍ .

وتبين أن عمل الثوب والقلنسوة مستحيل فى ليلة واحدة ، فترك الأمير أمر الثوب الجديد وتخيَّر ثوباً آخر من خزانته ..

ووضع القماش على كرسىٍّ فى المجلس .

ومضى الوزير عيسى لإعداد ما يلزم للنزهة غداً ..

وبعد أن صلَّى الأمير المغرب شعر بتغيُّر حاله ، وثارت عِلَّتُه ، ونزف نزيفاً طويلاً ، وتكرر ذلك مراراً .. وسقطت قوة عبد الرحمن .. وقُرْبَ منتصف الليل لفظ نفسه الأخير .

١- أعجلْ : أسرعْ .

٢- قَلَنْسُوَةٌ : لباسٌ للرأس مختلف الأنواع والأشكال . وجمعها : قلانس ، وقلانيس .

وفى نفس الليلة تولى ابنه الأمير محمد العرش .. وجلس فى المجلس الذى كان فيه أبوه قبل أن يعاوده المرض .. ووقعت عينه على ذلك الثوب المُوشَّى المُرْجَى قَطْعُهُ ، موضوعاً على الكرسىِّ ، وعرف شأنه مع والده ، وتعجَّب وقال : كان يرجو أن يكون ثوب سروره ونزهته فليكنْ كفنه - نضَّر الله وجهه - .

وهكذا أصبح ثوب المسرَّة ثوب الأسى ..

وتحدث الناس بذلك زماناً واتخذوه عِبْرةً وموعظة ومثلاً من تصاريف الأيام التى تفعل بنا ما تريد .. فهذا أمير خدعه تَحسُّنٌ ظاهرٌ عابرٌ فأحسَّ أن عِلَّته قد زالت وأن أيام السرور عادت ثانية ..

وما كان ذلك إلا لمحة من الأمل أبرقت فى أسارير [1] الأمير حين أحس بتحسُّن يسير عابر - والموت له بالمرصاد عند منعطف الطريق - ..

ومَنْ منَّا يدرى فى أى منعطف من الطريق الطويل أو القصير تنتظره النهاية التى لا مفرَّ منها ..

ونحن منه وإليه - سبحانه - .

١- الأسارير : خطوط بطن الكَفِّ والوجه والجبهة . وأبرقتْ فى أساريره ، أى : بَدَتْ فى ملامحه .

هكذا كانوا يصلون
إلى العرش

فى حديث سابق من أحاديث منتصف الليل روينا خبر موت الأمير عبد الرحمن بن الحكم رابع أمراء الأندلس من البيت الأموى ليلة الخميس ٤ ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هجرية ، ووقفنا عند موقع الغرابة والعِبْرة فى هذا الحادث الأليم الذى وقع قرابة منتصف الليل ..

فلننظرْ فيما حدث بعد وفاة هذا الأمير الصالح ، وهو أعجب من حديث وفاته ..

فنحن نعرف أنه فى أيامنا عندما يموت رئيس الدولة يجتمع كبراؤها وأهل الحَلِّ والعَقْد فيها لتولية خَلَفِهِ وفق نظام دستورى مقرر مكتوب . أما فى العصور الوسطى - فى كل بلاد الإسلام - فكان الأمر على خلاف ذلك: كان السلطان أو الخليفة إذا فارق الدنيا كتمَ الخدم والموالى خبر الوفاة ، ثم اجتمعوا ليختاروا مَنْ هو أصلح لهم ، ثم بعثوا لمرشَّحهم فى السِّرِّ فيُسْرع إلى القصر فيسلِّموه مفاتيح خزائن الدولة وخزائن السلاح ، فيُغْدِق السلاح فى أنصاره ويجلس على سرير المُلك [1] ، ويبعث إلى أهل بيته وخاصةً الطامعين فى الولاية ، فيؤتى بهم كَرْهاً فيبايعوه وإلا فالموت نصيبهم ، ثم يُغدق الأموال على الجميع ؛ ويستقر له الأمر .. وهنا - فقط - يُعْلَنُ خبر وفاة السلطان

١- أى : يوزِّع السلاح على أنصاره ، ويجلس على العرش .

السابق ؛ وتبدأ نسوان [1] القصر فى البكاء والنحيب .. ويُعلَن الحداد.

وقبل أن يُتوفَّى الأمير عبد الرحمن كان ابناه محمد وعبد الله يتنافسان على ولاية العهد ، ومع أن الأمير عبد الرحمن كان قد وقع اختياره على محمد ورشحه للولاية من بعده ، إلا أن أخاه الأصغر عبد الله كان طامعاً فيها تشجعه على ذلك أمه «طروب» ، وكانت جارية بشكنسية جميلة أحبها الأمير عبد الرحمن وفضَّلها على بقية نسائه ، فاستخدمت هذا الحب لتحقيق مَأْربها من ولاية العهد لابنها مستعينة على ذلك بالفتى «نصر» ، وكان أقرب خدم الأمير عبد الرحمن إلى نفسه . وقد بلغ بها الأمر أن دبَّرت مع نصر قتل الأمير عبد الرحمن بالسُّم ، ولكنه اكتشف المؤامرة وأرغم نصراً على شرب السُّم الذى أعدَّه له فشربه ومات .

وكان عبد الله ابنها بعيداً عن صفات المُلك والرياسة ، فكان كثير اللهو واللعب ، ولكنه كان قد أرصد عيوناً على أبيه فى القصر ، ليوافوه بالأخبار أولاً بأول ، حتى إذا جاء الخبر بوفاة الأمير كان أسرع من أخيه إلى دخول القصر . وأغدقت «طروب» الأموال على الخدم والفتيان ليعاونوها على مأربها إذا حانت الساعة الحاسمة ..

وكان لمحمد هو الآخر عيونه وأنصاره بين الحواشى والخدم ، وكان أكبرَ أنصارِ الأميرِ محمدٍ الوزيرُ الحاجبُ عيسى بن شهيد ، وكان أقدر رجال الأمير عبد الرحمن وأعقلهم وأكثرهم خبرة ، وكان كبير الثقة فى محمد حريصاً على أن يصير الأمر إليه .. ويليه فى ذلك حبيب الصقلبى ، وكان

١- النِّسوان : النِّسوة أو النساء .

زعيم فتيان القصر بعد وفاة الفتى نصر ..

واتفق محمد مع حبيب الصقلبى على أنه إذا حَلَّ بوالده حَدَثُ الموت أن يُشعره بذلك ويسهِّل له دخول القصر ؛ لأن عادة بنى أمية الأندلسيين كانت تقضى بأن يغادر الأمراء القصر إذا بلغوا سِنَّ الرشد ويسكنوا فى قصور خاصة بهم قرب قصر الخلافة ولكن خارج أسواره ، وذلك حماية للأمير الحاكم من مؤامراتهم ومناوراتهم وتَسابقهم فى الحصول على العرش .

فلما مات عبد الرحمن كتم الخدم الخبر ، وأسرع حبيب الصقلبى فأرسل إلى محمد يبلغه الخبر ويستحثه على الإسراع بالقدوم ، وأرسل له خاتم أبيه ليتأكد من أنه قد مات ، وكانا قد اتفقا على أمارة خاصة بينهما ، فحدث أن نسى حبيب الأمارة ، فلما جاءه الرسول ولم يعطِهِ الأمارة تخوَّف وتردَّد .. ثم عزم على المسير خوفاً من ضياع الفرصة .

وكانت لمحمد بنت يحبها الأمير عبد الرحمن ويبعث فى طلبها بالليل ليأنس برؤيتها ، وقد عرفها الخدم والبَوَّابون بهيئتها والخادم الذى يصحبها فى الغالب .. فبدا للأمير محمد أن يلبس ملاءة ابنته هذه حتى يفتح له البوَّابون الأبواب دون صعوبة .. وكان عيسى بن شهيد قد استمال البوَّابين الذين يحرسون باب القصر المسمَّى بباب المدينة ، فسهل على الأمير محمد دخوله .. ولكن البوَّابين رفضوا إدخال حاشيته ورجاله فدخل مع وكيله محمد بن موسى ، فلما أُغلِق الباب من خلفهما قال لوكيله : ابقَ هنا ؛ ولا تفتحْ لأحد حتى أبعث بمن يُعينك على ضبطه .

وسار محمد ومعه سعدون - وكان من كبار فتيان القصر - ، فلما بلغا باب القصر رأى البوَّاب بنت الأمير داخلة مع سعدون فتركها تدخل ، ثم ارتاب فى الأمر وقال لسعدون : إنى لأرى معك شخصاً غير شخص الابنة التى جرت عادتها بالدخول إلينا . وأصرَّ البوَّاب على أن يتأكد من شخص هذه الحُرمة المستورة ، فاضطر الأمير محمد إلى الكشف عن وجهه وأبلغ البوَّاب - واسمه ابن عبد السلام - أن أباه توفى وأنه أتى ليتولى مكانه ، فأصرَّ البوَّاب على أن يدخل بنفسه ليتأكد من وفاة الأمير ، وبقى محمد وحده فى الدهليز والخوف يملأ نفسه من أن يكون أخوه عبد الله قد دَبَّرَ حيلة يسبقه بها إلى دخول القصر .

ودخل البوَّاب وتأكَّد مما قاله محمد ، فعاد ودعاه إلى الدخول ..

فدخل وكشف عن وجه أبيه المُتوفَّى وبكاه ..

وأسرع حبيب الصقلبى فسلَّمه مفاتيح الخزائن ، وبايعه رجال القصر ، وأقبل عيسى بن شهيد الحاجب فأتم أخذ البيعة له ..

وبعث الأمير الجديد إلى إخوته الذكور فبايعوه ، ثم بايعه أعمامه وأبناؤهم وكبار رجال الدولة : أتى بهم جميعاً فى جنح الظلام .. ولم يطلع الفجر حتى كانت البيعة قد تمت له .

كان ذلك كله بعد منتصف ليلة الخميس ٤ ربيع الآخر سنة ٢٣٨هـ / ٢٤ سبتمبر ٨٥٢م.

وكيف ينام من قتل
١٠٠٠ رجل غدراً ؟!

فى أواخر فبراير سنة ١٨١١م عاد «محمد على» والى مصر من الصعيد وهو يشعر بخوف شديد من المماليك ، فقد كانوا بعد هروبهم من القاهرة منبثِّين فى نواحى الصعيد ، وقد وضع كل منهم يده على ناحية وتسلَّط على أهلها بجماعة من أنصاره ، وانفرد بها كأنه أمير مستقل ، وأخذ كل واحد منهم يجمع الأموال والسلاح استعداداً لجولة جديدة من الصراع مع والى مصر الجديد لعلَّهم يستعيدون منه السلطان على البلاد .. وأدرك محمد على فى نفسه أنه لابد من أن يضرب المماليك ضربة قاصمة لا تعود لهم بعدها قائمة ..

كان قد صالحهم منذ شهور ، ولكن كبيرهم «إبراهيم بك» شَكَّ فى نوايا محمد على ، فنقض الاتفاق وفرَّ إلى الصعيد وتحصَّن فى الجيزة ، وتبعه غيره من المماليك فى ذلك ، فذهب محمد على لمصالحتهم فلم يفلح وعاد إلى القاهرة ..

ولم يكن محمد على صادقاً فى نيته ، إنما هو كان ثعلباً يراوغ ثعالب مثله ، فلما عاد إلى القاهرة فكَّر فى حيلة أخرى يصل بها إلى ما يريد .

وكانت الدولة العثمانية قد طلبت إليه إعداد حملة يرسلها إلى جزيرة

العرب لحرب الوهَّابيين الذين كانت دعوتهم تَلْقى قبولاً وتأييداً فى الجزيرة يوماً بعد يوم ، ولم يكن محمد على يستطيع مخالفة أمر السلطان ، فشرع فى إعداد الحملة واختار لقيادتها ابنه «أحمد طوسون» . وكان قد قرر فى نفسه أن هذه الحملة لن تبرح [1] مصر حتى يكون قد صفَّى حسابه مع المماليك ..

فأعلن أنه سيقيم يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١م احتفالاً ضخماً بتقليد ابنه قيادة هذه الحملة وأنه سيقيم فى القلعة صِواناً [2] عظيماً ووليمة كبرى لهذه المناسبة ، ودعا كبار رجاله والشيوخ وأعيان الناس لحضورها . وزيادة فى الاحتيال أعلن أن الاحتفال سيكون مناسبة للمصالحة القومية الشاملة ، ولهذا فقد دعا رؤساء المماليك فى القاهرة والأرياف إلى حضور هذا الحفل ، وأكَّد لهم أنه خالص النية هذه المرة ، وصَدَّقه معظمهم ، وصَدَقَ فيهم المثل : «عندما يحين القدر يَعْمَى البصر» .

وفى اليوم المشهود أقبل كبراء الناس والقادة وزعماء المماليك فى كامل أُبَّهَتِهم [3] ، وتَجمَّع الموكب فى ساحة القلعة ، وكان المفترض أن يسير بعد ذلك بنظام فى منحدر طويل يشقه خندق غير مُعَبَّدٍ ومليء بالصخور ، ويؤدى هذا المنحدر إلى باب العزب ، وهو الباب الغربى للقلعة وهو يؤدى إلى الميدان الفسيح الذى يقع فيه مسجد الرفاعى ومسجد السلطان حسن ، ويسمى اليوم «ميدان صلاح الدين» ، وكان

١- تبرح : تغادر .
٢- الصِّوان - بكسر الصاد أو ضمِّها - : ما يُصان به أو فيه الكتب والملابس ونحوها . وقد شاع استعمال هذه الكلمة بمعنى «السُّرادق» وهو الفُسطاط الذى يجتمع فيه الناس لِعُرْسٍ أو مأتم أو احتفال ، وهو المراد هنا .
٣- الأُبَّهة : العَظَمة .

يسمى – إذ ذاك – «ميدان الرميلة» .. ومن باب العزب يهبط الموكب إلى «ميدان صلاح الدين» ، ثم يشقُّ شوارع القاهرة ..

وفى اليوم المحدد ، وهو الجمعة أول مارس سنة ١٨١١م ، حضر المماليك فى كامل أُبَّهتِهِم ، حضر منهم نحو خمسمائة ، ورحَّب بهم محمد على أجمل ترحيب ، وتَصافوا معه ، وشاهدوا معه حفل تنصيب ابنه قائداً لحملة الحجاز ..

وبعد أن انتهت مراسم الحفل انتظم الموكب وفى مُقدَّمته محافظ القاهرة والمحتسب ورجالهما ، ويَلِى ذلك المماليك يتقدمهم كبيرهم «سليمان بك البوَّاب» ، وتَلِى ذلك فرقة من الجند الألبانيين ثم كبار أصحاب المناصب من المصريين .

وسار الموكب فى ذلك الخانق الوَعْر [١] ، وخرج من باب العزب المحافظ والمحتسب ورجالهما ، وعندما تقدَّم المماليك لاجتياز الباب أُغْلِقَ الباب فى عنف ، وقفز جند الألبان الذين خلفهم إلى الصخور على جانبى الخانق، ثم فتحوا النيران على المماليك ، وبُهِتَ هؤلاء ووقفوا والرصاص ينهال عليهم .. لقد أذهلتهم المفاجأة ، وسقطوا عن جيادهم ، وتَرجَّل نفرٌ منهم وأخذ يتسلَّق الصخور ، ولكن رصاص الألبان لم يمهلهم . فى هذه اللحظة كان محمد على يسمع صوت الرصاص ، وقد بَهِتَ لونُه [٢] ، وجَمُدَ لسانُه .. كان يعرف أنه يرتكب جناية كبرى ، ولكنه كان يعرف أيضاً أن هؤلاء المماليك ارتكبوا فى حق الناس جنايات لا تقل عن جنايته بشاعةً

١- أى : الطريق الضَّيِّق الصعب الملىء بالصخور .
٢- اى : شَحَبَ أو تغيَّر لونه من حزن أو فزع أو رعب .

خلال القرون الستة الماضية إلا قليلاً .. فمنذ استولوا على السلطان فى مصر - سنة ١٢٥٠هـ - إلى ذلك اليوم ، ولا هَمَّ لهم إلا إذلال الناس ونهب أموالهم وقَتْلَهُمْ دون حساب .

واستمر القتل إلى ما بعد الظهر ، فلم يَنْجُ من المماليك إلا فارس واحد يسمى «أمين بك» ، قفز بحصانه من أعلى القلعة إلى الأرض مسافة ثلاثين متراً ، وقبل أن يصل إلى الأرض قفز عن ظهر حصانه مسافة متر ووصل سالماً ، أما الحصان فتهشَّم - وقد رسم الرسام الفرنسى «دييه» لوحة جميلة لذلك المملوك الناجى وهو يقفز بحصانه - ..

ثم نزل جند الألبان إلى القاهرة وهاجموا بيوت أولئك القَتْلى ونَهَبُوها نهباً ذريعاً .. وكان محمد على يتسمَّع الأخبار ورُعْبُ الخيانة بادٍ فى عينيه .. وعندما انتصف الليل دخل عليه طبيبه الإيطالى الدكتور ماندريتشى وابتسم وقال منافقاً : لقد قُضى الأمر ، واليوم يوم سعيد لِسُمُوِّكُمْ .. قوموا إلى فراشكم وناموا آمنين ؛ فقد ارتحتم من عدوِّكم.

ولكن «محمد على» لم ينهض ولم ينم .. وكيف ينام مَنْ قَتَلَ فى يوم واحد ألفَ رجلٍ غَدْراً ، وَنَهَبَ خمسمائة بيت ، وقَتَلَ مَنْ فيها من النساء والأطفال ؟!

ميلاد الثورة الفرنسية

نحن فى فرنسا فى العقد التاسع من القرن الثامن عشر ، بين سنتى ١٨٨٠ و ١٨٩٠م . البلاد على حافة هاوية ، والمملكة الفرنسية الكاثوليكية جدًّا -كما كانت تُسمَّى- كانت تغلى بعوامل الثورة والاضطراب والقلق ، فالملك لويس السادس عشر متوسط الذكاء ضعيف متردد ينقض اليوم ما أبرمه بالأمس ، وليست له القدرة على أن يحسم أمراً ، وإلى جانبه الملكة مارى أنطوانيت ابنة ماريا تيريزا النمساوية امرأة طموح ذكية متمسكة أشد التمسك بما كان يسمَّى حينئذٍ حقوق المَلِك والأشراف ، وهى طروب لعوب يتهمها الناس بسلوك مشين مع الكونت فريسن ، ومن حول المَلِك حاشية فاسدة مُفسدة يعتقد أفرادها أنهم هم وحدهم الناس ومَنْ عداهم تراب ..

هناك آل بولينياك ، ثم إخوة المَلِك : كونت بروفانس ، وكونت دارتوا، وهناك ابن عمهم دوق أورليان ، وعشرات من أمثالهم من أفراد الأسرة المالكة.

كانت قصور فرساى تعجُّ [1] بالخدم والحشم . كانت عدة الخدم خمسة عشر ألفاً ما بين حرس ورجال الخدمة ونسائها ، وكان لكل من الأمراء وأفراد الأسرة خدمه وحشمه ، وكان هؤلاء جميعاً يُقيمون قرب فرساى ، يقضون حياتهم فى ترف وعبث وفساد ..

١- أى : تمتلئ .

كان البلاط وحده يكلِّف الشعب عُشْرَ إيراد المملكة كله ..

هؤلاء هم الطبقة العليا وسادة البلاد ، وإلى جانبهم كان رجال الدين -وهم طبقة قائمة بذاتها ، كان أفرادها يبلغون مائة وثلاثين ألفاً ما بين أساقفة وقساوسة ورهبان- .. كان الأساقفة أمراء بالفعل ، يعيشون فى قصور أمراء ولهم أيضاً بلاط وحاشية ، ويحيط بالأساقفة كبار القسِّيسين وكانوا أثرياء أيضاً، ثم تَلِى هذه طبقة رجال الدين الفقراء من رعاة الكنائس الصغيرة والرهبان والشمامسة ، هؤلاء كانوا معدودين فى طبقة رجال الدين ولكنهم فى حقيقة الحال كانوا من العامة أو الطبقة الثالثة كما كانت تُسمَّى ، وإلى جانب هؤلاء كان هناك سبعون ألف قسِّيس مدنى ، وهم رجال لا يتولون وظائف كنسيَّة ، ولكنهم وُعَّاظ وطفيليون على مائدة الدِّين . كان رجال الدين يقتطعون عشرة فى المائة من إيراد العمال والزراع والتجار .

وتَلِى هاتين الطبقتين الطبقة الثالثة ما يسمَّى باسم Tiers Etat وهم بقية الشعب العامل النشيط ، وكانوا أيضاً فِرَقاً وطوائف ، فهناك أغنياء التجار والمزارعون وأصحاب المصانع والمتعهدون والمحامون والموثِّقون والأطباء ومن إليهم ، هؤلاء كانوا «المياسير» أو «البورجوازية العالية» . وهناك «المساتير» La petite bourgoisie وهم أهل الدكاكين والبيع والشراء وأصحاب الملكيات الصغيرة . وأسفل هؤلاء جميعاً كان العمال والحرفيون الصغار وعامة الفلاحين ، وكان هؤلاء يعيشون فى ضنك شديد وكانوا يؤلفون خمسة وتسعين فى المائة من عامة السكان ، ولكنهم كانوا لا يصيبون أكثر من خمسة عشر فى المائة من الإيراد العام .

وكان الجو حول هؤلاء جميعاً مشحوناً بأفكار الثورة والنقد اللاذع

لهذا النظام الظالم . كانت آراء ڤولتير وروسُّو تملأ الجو وتتحدث عن الحرية والمساواة ، وكانت مسرحيات بومارشيه تنقد النظام نقداً صريحاً ، وكان زعيم المفكرين الأحرار فى فجر الثورة ماركيز كوندورسيه يطالب بإلحاح بضرورة الإصلاح ، وإلا عَمَّ الخراب ، وكانت صحف العصر مثل الميركور دى فرانس ، والجازيت دى فرانس تنشر هذه الآراء وتعرض صورة السخط البالغ الذى يملأ قلوب الناس .

وفى أوائل ١٧٨٨م بلغت أزمة المملكة أقصاها ، فقد أفلست الدولة ولم تعد الحكومة قادرة على تسيير الأمور . واستقر الرأى على دعوة مجلس الطبقات العامة Les Etats Génŕaux وهو مجلس مملكة قديم لم يجتمع منذ سنة ١٦١٤م كان يتألف من ممثلين للطبقات الثلاث: الأَشْرَاف ، ورجال الدين ، والعامة .. وكان لكل طبقة صوت واحد ، ولما كان رجال الدين يقفون دائماً إلى جانب الأشراف ، فإن صوت مُمثلى الطبقة الثالثة Les Tiers Etat كان يضيع هباء . ورفض الناس أن يُطَبَّق هذا النظام العتيق ، وأصروا على أن يكون التصويت مطلقاً : لكل نائب صوت ، ورضخ الملك لذلك ، ودعا إلى الانتخابات العامة ، وفى ٨ أغسطس سنة ١٧٨٨م صدر المرسوم بدعوة الناس لانتخاب مُمثّليهم على أن تنتخب كل طبقة من يمثلونها .

وفى أثناء ذلك ازدادت الأزمة الاقتصادية ، وعَمَّ البلادَ القَحْطُ (١) وتهدَّدتها المجاعة ، وجعلتْ (٢) جماعات الفلاحين فى الأقاليم تهاجم قصور النبلاء . وتمت الانتخابات ، وفى الخامس من مايو سنة ١٧٨٩م عُقدت جلسة الافتتاح وبدأت المشكلة ، فإن خطاب الملك كان بارداً لا يَعِدُ بشىء وكل ما

١- أى : احتباس المطر .
٢- أى : أخذت .

فهم الناس منه هو أن المطلوب من هذا المجلس أن يقرَّ ضرائب جديدة على الفلاحين والزراع . ونهض بعض نواب الشعب وطعنوا فى صحة انتخاب الكثيرين من النبلاء ، وطالبوا بفحص الطعون ، وفى أثناء الاجتماعات التالية زادت الفوضى ، وظهر أن الطبقة الثالثة تسيطر على المجلس شيئاً فشيئاً ، وفى اجتماع ١٧ يونيو سنة ١٧٨٩م وقف الفلكى «بايى» نائب باريس وأعلن أن هذا المجلس هو «المجلس الوطنى» لا مجلس الطبقات ، وطالب نوابه بوضع دستور ، وبضرورة تغيير النظام كله وإصلاحه . وكان الاجتماع منعقداً فى قاعة من قاعات «فرساى» ، وأقسم نواب الشعب على الترابط حتى يستجيب الملك لما يريدون ، وسُمِّى القسم بقسم لعب التفاح . وفى الثالث والعشرين من يونيو عقد الاجتماع الذى سُمِّى اجتماع الخديعـة ، لأن الملك لم يلبث هو ووزراؤه أن انصرفوا ، وظل النواب يتوالون على منصَّة الخطابة حتى جاء الليل .. وتطورت الأفكار إلى ثورة سياسية حقيقية . وقرب منتصف الليل أرسل الملك رسولاً يطلب إلى النواب فضَّ الاجتماع ، وهنا نهض «ميرابو» وصاح فى مِندوب الملك : «اذهبْ وقلْ للذين أرسلوك أننا هنا بإرادة الشعب ، ولن نبرح مكاننا إلا على أَسِنَّةِ الحِراب ...».

كانت هذه شرارة الثورة ، فقد انفجرت مراجل الغضب الشعبى ، وبدأ الهجوم العام على الملك والأشراف ورجال الدين ، وانتقلت السلطة من الملك إلى «الجمعية الوطنية» .. لقد بدأت «الثورة الفرنسية» . كان ذلك فى منتصف ليلة الرابع والعشرين من يونيو سنة ١٧٨٩م .

المقريزى يؤلف كتاباً كاملاً
فى ليلة واحدة

فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى هبط مستوى الحكم فى مصر والشام إلى درك سحيق . كانت دولة المماليك الأولى المعروفة بدولة المماليك البحرية قد انتثر [1] نظامها وضاع رونقها ، وتوالى على عرشها فى مصر والشام سلاطين هم إلى الأطفال أقرب منهم إلى الرجال ، كلهم من أحفاد الناصر محمد بن قلاوون ، ومهما قلَّبت فى صفحات تاريخ مصر والشام فى ذلك العصر فإنك غير واجد شيئاً يسرُّ القلب ، أو يستحق التسجيل .

ومع هذا ، فقد كان هذا عصر المؤرخين الكبار ، عصر القمم التى انتهى إليها تطور علم التاريخ عند العرب فى عصوره المتأخرة ، فهذا هو عصر تَقِىّ الدين المقريزىّ وجمال الدين العينىّ وشمس الدين السخاوىّ وابن حجر العسقلانىّ ، ومَنْ إليهم ممن انتهى إليهم التجديد فى صنعة التأريخ عند المسلمين فى العصور الوسطى .

إذن : فنحن أمام مفارقة عجيبة : مؤرخون عظام اجتمعت لهم أسباب الإجادة والإبداع .. ومع ذلك فلم يكن فى عصرهم ما يؤرخون له .

١- أى : اختلَّ.

وماذا فى أخبار أولئك الطواغيت الأراذل سلاطين نهاية دولة المماليك البحرية - وكلهم دون استثناء ذئاب تَلِغُ فى حياة الناس - ؟!..

فأما ابن حجر العسقلانىّ والسخاوىّ فقد انصرفا إلى التأريخ لأجمل صفحة من حياة ذلك العصر ، صفحة العلم وأهله ، فقاما بجمع أخبارهم وتأليف المجلدات فى تراجمهم ومؤلفاتهم .

وأما أبوالمحاسن فكان رجلاً سَرِيًا [1] نبيل النفس جميل الهيئة واسع العلم ينحدر من بيت من بيوت الحكم المملوكية ، ولهذا يُعدُّ فى أولاد الناس - أى : أولاد الذوات كما نقول فى عصرنا - ؛ ولم يشأ لهذا أن ينفق جهده فى التأريخ لأراذل عصره ، وإنما انصرف إلى كتابة تاريخ شامل لمصر منذ الفتح الإسلامى إلى أيامه ، وجعله على نسق جميل لطيف لم يُسبق إليه ، ومضى يكتب فى «النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة» فى أناةٍ وصبر وحب . نعم ، فإن أبا المحاسن كان عامر القلب بحب بلاده وهى مصر والشام معاً فى أيامه .

وأما المقريزىّ فقد أحسَّ أن واجبه كمؤرخ يفرض عليه أن يكتب تاريخاً لعصره ، فشمَّر عن ساعد الجِدِّ ، ومضى يكتب كتابه الفريد «السلوك لمعرفة دول الملوك» أَرَّخ فيه لدولتى الأيوبيين والمماليك ..

ولكن هذا التاريخ على شموله لم يطفئ غُلَّةَ [2] تقىّ الدين المقريزىّ، فهو تلميذ ابن خلدون ، وقد تعلَّم من شيخه أن التاريخ ليس مجرد رواية للأحداث وسِيَرِ الحكام ، وإنما هو فلسفة هذه الرواية والنظر إليها نظراً

١- سَرِيٌّ : شريفٌ سخىٌّ ذو مروءة . والجمع : أسرياءُ ، وسَرَاةٌ .

٢- الغُـلَّة : شدة العطش ، والمراد بها هنا : حب العلم .

شاملاً على ضوء ما كان وما يكون لتُستخرج منها العِبْرة وليخرج العقل منها بشيء ينفعه ويصلحه .. ولهذا فقد عكف على كتابة مؤلفات حضارية ، أى : كَتَب فى نواحى حضارة عصره وحضارة الإسلام كلها ، فكتب كتباً صغيرة فى بعض نواحى العمران ، وتلك هى مكتبة المقريزىّ الصغيرة ، وإلى جانبها وضع كتابه الفريد فى بابه : الخُطط ، أى : خُطط مصر والقاهرة ، أى : أقسامها الإدارية ، وسمَّاه بكتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخُطط والآثار ، وهو صورة فريدة لمصر فى العصور الوسطى : نظامها وترتيب إدارتها والقاهرة وما فيها من شوارع وحَوارٍ وأزقَّة ومساجد ومدارس وبيمارستانات .. سِجِلٌ حافل لم يُوَفَّق مؤرخ آخر فى أن يعطينا مثله عن عصره وبلاده ..

ومن كتب المقريزىّ الصغيرة ، كتاب فريد فى بابه يسمى (إغاثة الأُمَّة بكشف الغُمَّة) ، وهو تاريخ اقتصادى لمصر فى العصور الوسطى ، والعنوان نفسه فيه سخرية ومرارة ، فإن الغُمَّة التى يذكرها المقريزىّ فى عنوان كتابه إنما هى حكم المماليك نفسه ، فهو فى نظره غمة وبلوى ، وهو يصرح بذلك إذ يقول فى فاتحة كتابه : «وبعد .. فإنه لما طال أمد هذا البلاء المُبين ، وحَلَّ فيه بالخَلْق أنواع العذاب المُهين ، ظن كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ولا مر فى زمن شبهها ... ومن تأمَّل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته وعرفه من أوله إلى غايته ؛ علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد ...» ..

وعلى هذا المنوال من الجرأة يمضى المقريزىّ فى عرض الحالة الاقتصادية فى مصر والشام أيام سلطنة المماليك ، وكيف أدى سوء الحكم وظلم الحكام إلى المجاعات والغَلَوات - أى : نوبات غلاء الأسعار - ، موجِّهاً النقد الشديد لأُولِى الأمر فى تلك الأيام ، فإن كانت لديك فسحة من الوقت فالتمسْ كتاب (إغاثة الأُمَّة بكشف الغُمَّة) وسَرِّحْ نظرك فيه [1].

والطريف فى هذا الكتاب الصغير الذى يقع فى قرابة ثمانين صفحة أن المقريزىّ كتبه فى ليلة واحدة ، يقول فى خاتمته : قال المؤلف رحمه الله تعالى : تيسَّر لى ترتيب هذه المقالة وتهذيبها فى ليلة واحدة من ليالى المحرَّم سنة ثمانٍ وثمانمائة ، والله يهدى من يشاء ، والحمد لله وحده ، وصلَّى الله على من لا نبىَّ بعده ...

حقًّا ، لقد كانت الهُوَّة بين شعوب أمة العرب وحكامها فى العصور الماضية جسيمة ، وهل هناك هُوَّةٌ هى أوسع مما كان فيه عِلْمُ رجل كالمقريزىّ وحرصه على العمل ، وإخلاصه فيه ، وما كان من جهل سلاطين المماليك الذين عمل فى أيامهم وما أنزلوا بشعوبهم من البلاء حتى صاروا فى نظر شعوبهم غمة تتطلب الإغاثة والإنقاذ ؟!..

١- أى : اقرأهْ وتأمَّلْ ما فيه .

لقاء مع امرأة أجنبية

مدينة «نيو شاتل» فى سويسرا صباح يوم من أيام سبتمبر ١٨٣٣م القَصَصِىُّ الفرنسىُّ الأشهر أونوريه دى بلزاك جالس فى دار صديقه أنطوان ريه . إنه قلق مضطرب ينتظر الليل بفارغ الصبر . لا يدرى أحد ماذا يخبِّئ له القدر مساء هذه الليلة ، وصاحبه ينظر إليه عجباً ، ويدهش كيف يتحول عبقرى من طراز بلزاك وحجمه إلى طفل لا يطيق الصبر ساعات ؟!..

إنه على موعد مع سيدة مجهولة ، هى سيدة كتبت إليه من أوديسا فى ٢٨ فبراير ١٨٣٢م تعلن إعجابها به ورغبتها فى الاتصال به ، ووقَّعت خطابها بإمضاء «الأجنبية L' Etrangŕe» . ومع أن رجلاً مثل بلزاك كان يتلقى خطابات كثيرة من هذا النوع ، إلا أن هذا الخطاب استوقف انتباهه كله . لم تكن هناك وسيلة لمعرفة تلك المجهولة ، لأنها كتبت له فى خطابها: إنك لن تعرفنى إلا عن طريق الرسائل . ولم يطق الرجل صبراً ، فكتب ردًّا موجزاً على استحياء ونشره فى المجلة الفرنسية Gazette de France فى أبريل ١٨٣٢م .

وعادت السيدة الأجنبية تكتب إليه مرة أخرى فى التاسع من ديسمبر

من نفس السنة كاشفة النقاب عن نفسها ، إنها النبيلة البولونية إيفيلين هافسكا - واسمها الأصلى إفيلينا رتسيفوسكا - ، وهى زوجة لرجل مُوسِر صاحب ضِياع يكبرها باثنتين وعشرين سنة . ولكن هذه السيدة الغريبة لم تطلب مقابلة ولا حددت موعداً ولا ذكرت عنواناً ، فبادر الأديب الكبير فنشر إعلاناً صريحاً فى جريدة La Quctidience فى ٩ ديسمبر ١٨٣٢م ، ولم يصله الرد سريعاً . وكان عليه أن ينتظر حتى جاءه خطاب يحدد الموعد فى مدينة نيو شاتل فى سويسرا فى يوم من أواخر سبتمبر . نحن اليوم فى صباح ذلك اليوم وموعد اللقاء فى الليل فى حفل ساهر تقيمه سيدة سويسرية ذات مال وجمال .

كان بلزاك فى ذلك الحين فى أوج حياته وإنتاجه [1]. كان فى الثالثة والثلاثين من عمره ، فقد ولد فى العاشر من مايو ١٧٩٩م ، وكان قد خطا خلال السنوات الثلاث السابقة على خطاب الأجنبية خطوات حاسمة حددت مكانته كواحد من أكبر أدباء عصره وقَصَصِىٌ لم يسبق له مثال فى تاريخ الأدب العالمى . كان قد بَهَرَ الناس بمقاله الغريب «صورة تحليلية للزواج» Phisiologie du Marriage وهو مقال ساخر لاذع ثم أعقب المقال بنشر مجلدين ضمّا ست قصص تحت عنوان: صور من الحياة الخاصة Scénes de la vie Privée ..

١- الأَوْجُ : العُلُوُّ والقِمّة . والمراد أنه الآن فى أفضل مراحل حياته وفى قمة نضجه الأدبى .

وعلى أثر ذلك طار صيته [1] وذاع وأصبح من الشخصيات الأدبية المرموقة فى باريس ، واتخذ لنفسه صداراً حريريًّا أحمر لامعاً وعصا خضراء باهتة اللون مرصَّعة بالجواهر ، وصار يتنقل فى عربة يجرُّها حصانان أغرَّان مُحَجَّلان من عتاق الخيل الإنجليزية ، فأصبح بهذه الصورة عَلَماً فى رأسه نار ، وزعم أنه من أسرة شريفة ، وأصبح يسمِّى نفسه Honoré de Balzac وبهذا الاسم النبيل قدَّم نفسه إلى الناس فى روايته المشهورة «إهاب الأسى La peau du chagrin» التى نشرت فى مجلدين سنة ١٨٣١م ، وهى قصة رجل أنهك نفسه وماله فى طلب المتاع [2] حتى أفلس وتركه الناس وحيداً فريداً يستقبل الموت فى إهاب الأسى والأحزان . وكسب بلزاك من هذه القصة مالاً جزيلاً ؛ فسدَّد ديونه ، وتمكَّن ناشره المسكين آخر الأمر من أن يعوِّض بعض ما خسر فى روايات بلزاك الكثيرة السابقة .

ولم تأتِ الخسائر من أن روايات بلزاك لا تُباع ، بل لأنه هو نفسه كان ينفق أكثر مما يكسب ، وكان يسحب - على الحساب - مبالغ بعد أخرى من الناشر الطيب الذى لا يدرى ماذا يفعل بهذا الطفل الكبير ؟!

ذهب بلزاك إلى دار الموعد قبل العشاء بقليل ، وسأل فإذا الغريبة لم تحضر بعد ، فبدأت شكوكه وهمومه . لقد تلقَّى صدمة عاطفية قاسية

١- أى : اشتهر .
٢- المتاع هنا بمعنى التَّمتُّع أو طلب المُتَع .

قبل ذلك بسنة ، فقد كانت سيدة معجبة أخرى قد كتبت إليه تحت اسم مستعار تُبدى إعجابها به ورغبتها فى رؤيته ، ثم عرف فى فبراير سنة ١٨٣٢م أنها الماركيزة دى كاستري واسمها الحقيقى هنرييت دى مايبه .. Henriette de Malle

وكانت نبيلة حقًّا ؛ فقد أصبحت دوقة كاسترى سنة ١٨٤٢م ، وأعجب بها إعجاباً شديداً ، ثم دعته ليرافقها فى رحلة إلى إيطاليا سنة ١٨٣٢م ، فذهب فى الربيع ، ولكن زهرة الحب لم تتفتح لسبب لا يعرفه أحد وأصبح سرًّا بين الاثنين ، وافترقا بعد اللقاء على غير موعد ، وهبط على القصة كلها ستار النسيان .

خاف بلزاك أن تتكرر المأساة ، فجعل يتشاغل بالطعام وما به شهية ولا رغبة ، وطال الانتظار حتى اقترب نصف الليل ، وقال بلزاك فى نفسه: لئن لم تَأْتِ قبل منتصف الليل فأنا مِنْ غَدِى عائدٌ إلى باريس ، وهذا آخر العهد بأولئك الغوانى العابثات .

ولكنها أتت قبل منتصف الليل بدقائق ، وأَهَلَّتْ على القاعة بعد أن أعلن المنادى اسمها : الكونتيسة إيفيلين هانسكا .. ودق قلب بلزاك وتطلَّع .. ها هى تشرق على الناس بطلعتها كأنها الشمس .. ما أبهاها . وها هى المضيفة تتناول يدها وتسير بها إلى القَصَصِىِّ ذى الصدار اللامع وعصا التوركواز .. وكان اللقاء المقدور بين الاثنين . هذه المرة لم تُخلف الرجل ظنونه ، فقد ولدت تلك الليلة علاقة جميلة سعد هو بها وسعدت

به ، واستمرت الصداقة بينهما سنوات طويلة حتى توفى عنها زوجها فتزوجها بلزاك فى الرابع عشر من مارس ١٨٥٠م ، قبل أن يموت بخمسة شهور ، فقد مات بلزاك فى ١٨ أغسطس ١٨٥٠م عن إحدى وخمسين سنة لا تزيد ، مُخَلِّفاً وراءه تسعين رواية طويلة ومجلدات من المقالات والمراسلات . تراث رائع ضخم يجعل هذا الرجل فى الصف الأول بين القَصَصِيِّين فى تاريخ الأدب العالمى .

هكذا يُصنع السلاطين ويُحطَّمون

فى حديث سابق أشرنا إلى هبوط مستوى الحكم فى مصر والشام فى أواخر العصر المملوكى الأول ، أى : فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، وكيف انحلَّ نظام الدولة وهبط مستوى الحكام إلى درجة أصبحوا معها بلاءً على الناس ، وأصبح حكمهم غُمَّة يتمنى الناس أن يكشفها الله عنهم .

وفى هذا الحديث سنقدم مثالاً من أمثلة تصرفات أولئك الحكام يدخل فى نطاق أحاديثنا هذه عن وقائع حدثت فى منتصف الليل ، ويصوِّر فى نفس الوقت الدرك السحيق الذى وصل إليه الحكم فى مصر والشام فى ذلك العصر والأوان ..

فى يوم الثلاثاء منتصف شعبان سنة ٧٦٤هـ خلع المماليك سلطانهم الملك المنصور صلاح الدين محمداً حفيد الناصر محمد بن قلاوون .. خلعوه لأنهم لاحظوا أنه بدأ يخالف أوامرهم ويريد أن يتصرف على هواه ، فقرروا أن عقله قد اختلَّ ولم يَعُدْ يصلح للحكم ، وسجنوه فى بعض الدور السلطانية فى القلعة ، ولم يعد أحد يسمع عنه بعد ذلك شيئاً .

ثم أتوا بغلام فى العاشرة من عمره من أحفاد الناصر محمد بن قلاوون

أيضاً هو شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون ، ولقَّبوه بالسلطان الملك الأشرف زين الدين أبى المعالى شعبان .. وبَكَّرُوا بالصعود إلى القلعة وأحضروا الخليفة أبا عبد الله محمداً المتوكل على الله - تَصوَّرْ أن الخليفة أصبح شيئاً يُحضَر - ، وقضاة القضاء الأربعة ، وأعلموهم باختلال عقل المنصور وعدم أهليته للقيام بأمور المملكة ، وأن الاتفاق وقع على خلعه فخلعوه ، وأحضروا شعبان بن حسين ، وأفاضوا عليه خِلَعَ السلطنة [1] .. وحلفوا له وقبَّلوا الأرض على العادة .

وبدأ السلطان الملك الأشرف زين الدين يحكم ، ومعنى ذلك فى هذا العصر أن ذلك المسكين انزوى وترك الحكم فى أيدى مَنْ وَلَّوه الحكم وهم مماليك عُتاة من أمثال يلبغا ، وأزدمر الخازندار ، وقشتمر المنصورى ، وأرغون الأحمدى ، ومن إليهم من لصوص العصر والأوان .

وكان الملك الأشرف إذْ ذاك فى العاشرة من عمره ، فظل يحكم على هذا المنوال المُخْزِى أربع عشرة سنة ، فلما بلغ الرابعة والعشرين من عمره بدأ يفتح عينيه على الحقيقة ويتطلع للحكم ، وهنا غضب عليه السادة المماليك وقرروا عزله عن الحكم .

وأَحسَّ الشاب بذلك ففكَّر فى طريقةٍ ينجو بها من المصير الأسود الذى قرره له المماليك .. أعلن أنه خارج إلى الحج ، وفى شوال من تلك السنة (٧٧٨هـ) خرج موكب السلطان قاصداً الحجاز فى أُبَّهَةٍ بالغة ، وما إنْ وصل

١- خِلَعَ (جمع خُلْعة) والمراد بخِلَع السلطنة المزايا التى يتميز بها السلطان عن بقية الناس ؛ من ملابس وأموال ومخصَّصات ... إلخ .

السلطان بِرَكْبِهِ ومن معه من مماليك إلى أيلة (إيلات الحالية ، وكانت تابعة لمصر ، وكذلك كانت أرض غرب الجزيرة العربية حتى مَدْيَن جزءاً من مصر) ؛ حتى نهض المماليك يدبّرون خَلْعَ السلطان ، وكان أسلوبهم فى ذلك جافياً غليظاً يدل على غباء شديد ؛ فقد أعلنوا أن السلطان قد مات ، وقالوا إنهم يريدون إقامة ابنه عَلِيّ مكانه ، وكان طفلاً ، ثم بحثوا عن ناظره الخاص - أى: ناظر أموال السلطان - ؛ لكى يستخرجوا منه كل أموال السلطان - الذى قالوا إنه مات - فاختفى منهم ، وفى اليوم التالى بايعوا الأمير عليًا سلطاناً على اعتبار أن أباه قد مات - مع أن الرجل كان حيًا ما يزال - ، ولكنهم أخذوا توقيعات جميع العلماء والأمراء بأنهم رضوا بالطفل سلطاناً .

وبلغ الخبر إلى مماليك السلطان المرافقين له فانقلبوا عليه - وهم فى طريق الحج إلى بيت الله - وتنمَّروا له وطالبوه بالأموال ، فما كان من السلطان المسكين إلا أن هرب منهم فى نفرٍ قليل [1] من مماليكه وأسرع إلى القاهرة ، ولجأ السلطان إلى مبنى خارج القاهرة يسمَّى «قُبَّة النصر» وأرسل من يتعرف له الأخبار ، ولكنَّ أمْرَهُ لم يلبث أن انكشف ، ففر من هناك ، وأدرك الثائرون مماليكه فقتلوهم جميعاً ، وخرج السلطان تحت جُنح الليل فدخل القاهرة واختبأ ليلة عند امرأة كان يعرفها تسمَّى «امرأة المشتولى» ، فلما أصبح الصباح ذهبت فوَشَتْ به ، وفوجئ المسكين بهؤلاء الذئاب يحيطون بالبيت فلبس ملابس امرأة وحاول الهرب ، ولكنهم قبضوا عليه ،

١- أى : فى جماعة صغيرة .

واستمروا طوال اليوم يعذبونه حتى استخرجوا منه أسرار الأموال التى كان قد جناها ، وفى الليل نادوا القاضى محمد بن إبراهيم المنادى وطلبوا منه أن يُثبت وصية الملك الأشرف . فقال : كى أُثبت وصيته لابد من إثبات وفاته أولاً . فقالوا له : أهذا كل ما تطلب ؟ .. ثم أدخلوا على السلطان قرابة نصف الليل مملوكاً يسمَّى «جركس السيفى» فخنقه ، وأشهدوا الناس على موته .. وهنا فقط اطمأن قلب القاضى النزيه وأثبت الوصية . ووُضعت جثة السلطان المقتول فى «قُفَّة» وأُلقى بها فى حفرة ونُودى بابنه علىّ سلطاناً وسُمِّى «السلطان الملك المنصور» .

كان ذلك فى ليلة الثلاثاء ٦ من ذى القعدة سنة ٧٧٨هـ .

انقلاب ١٨ برومبير (٩ نوفمبر ١٧٩٩م) وانفراد نابليون بالحكم فى فرنسا

بعد الأهوال التى مرَّت بها الثورة الفرنسية منذ قيامها فى الرابع والعشرين من يونيو ١٧٨٩م ، وبعد المذابح الكبرى التى قامت بها حكومة الثورة أيام الإرهاب الكبير على يد «روبسبيرى» ، شعر الناس فى فرنسا بأن هذه النظم الدموية لا يمكن أن تؤدى إلى خير ، وأن تسليم البلاد إلى طوائف من المتحمسين الذين لا يفكر واحد منهم فى خير الأمة كان لابد أن يؤدى إلى الكوارث ، وأنه لابد أن هذا العَدْوَ المجنون نحو كارثة ربما كانت أسوأ من كارثة الإرهاب الكبير .

بهذا شَعَرَ الفرنسيون جميعاً فى بداية العام الثالث للثورة وهو عام ١٧٩٣م ، واتفق الرأى على ضرورة وضع دستور يحفظ الحقوق ويصون الدماء ، وقام بوضعه القانونيان دونو وبواسى دانجلا وتمت الموافقة عليه فى ٢٣ سبتمبر ١٧٩٣م (الموافق أول شهر فندمير من العام الثورى الرابع). وهو دستور معتدل يمثل ما كان الناس يحلمون به - إذ ذاك - بالقَدْرِ العادل Le juste mesure وهو مصطلح فرنسى كثير الاستعمال يقابل ما نسمِّيه نحن بالحل الوسط ، وهو حل وسط يجمع بين الثورة وحق الملكية من العدل وتأمين ثروات الناس وأموالهم ، ويبعد عنهم شبح الرعب والفوضى ، ومن طرائف هذا الدستور أنه كان يرى أن الحُكم ينبغى أن يكون للأصلح ،

والأصلح فى رأيه هو الأكثر علماً ، ولابد للمواطن الصالح فى رأيه أن يكون له مِلْك أو عملٍ ثابت يُدِرُّ عليه رزقاً معقولاً يؤدى عنه ضريبة معينة ، فلا مجال فى هذا الحُكْم للأُمِّىِّ أو للمُعْدَم ، فلا حقَّ لكليهما فى الانتخاب . ونتيجة لذلك ، وعند فحص حالات الناس ، استقر الأمر على مائتى ألف فقط لهم الحق فى أن يَنتخِبوا ويُنتخَبوا ، وذلك من عدد سكان كان يبلغ - إذْ ذاك - الثلاثين مليوناً ..

وذلك هو دستور حكومة الإدارة التى تُعرف بالديركتوار ، وهو يضع السلطة التشريعية فى يد مجلسين : مجلس الخمسمائة وهو يشبه مجلس النوَّاب ويدخله من كانت سنهم ثلاثين سنة فأقل ، ثم مجلس الشيوخ ويدخله من كانت سنهم فوق الأربعين ، والقوانين تمر من المجلس الأول فالثانى . أما السلطة التنفيذية فوُضعت فى يد خمسة من المديرين - أى : مديرى الجمهورية - يرشحهم مجلس الخمسمائة وينتخبهم مجلس الشيوخ ، ويعمل المديرون بمعاونة لجان مختلفة لشتى فروع الإدارة .

وقد سارت الأمور سيراً طيباً تحت حكومة الديركتوار ، واطمأنت القلوب وأمنت الأحوال ، ووُضعت أسس التعليم ومعاهد العلوم والأبحاث والدراسات التى أصبحت من ذلك الحين عنوان مجد فرنسا ، ونُظِّم الجيش تنظيماً جديداً ، ووُضع تحت الرياسة المباشرة لرئيس حكومة الديركتوار ، وكان أعضاء هذه الحكومة الخمسة يتناوبون الرياسة لكل واحد منهم سنة ، فإذا انتهت خمس سنوات انتهى حكمهم ، واختار المجلسان التشريعيان بَدَلَهُمْ ، وعندما صارت الرياسة لبارا عَهِدَ إلى «نابليون بونابرت» - القائد الشاب الذى انتصر فى الحملة الإيطالية - حارساً لحكومة الإدارة .

وعلى الرغم من التقدم الباهر الذى حققته فرنسا تحت حكومة الديركتوار وما أنشأته من المؤسسات العلمية والفنية وما وضعته من تشريعات صالحة ؛ إلا أن الشخصية المسيطرة عليها وهى شخصية «بارا» كانت شخصية قلقة أنانية لا تأنف من ارتكاب أعمال وضيعة ، ثم إن روح التسامح التى عمَّت البلاد أطلقت العنان للشهوات والمباذل ، فقد شبع الناس من تشدُّد الثوريين ومن مذابح الدم والمؤامرات ، وجاء وقت الاسترخاء والمُتَع ، فانتشرت فى المجتمع الفرنسى موجة من التحلُّل تشبه ما حدث فى إنجلترا بعد عودة الملكية واستقالة أوليفر كرومويل ، وانتشرت بيوت اللهو والفساد ، ونشأ جيل من الشباب العابث المُسَمَّى بالشباب المذهَّب La Jeunesse dorée ، وعاد الكثيرون من المنفيين إلى فرنسا حاملين ألواناً أخرى من التدهور والفساد .

وزاد الأمر سوءاً أنَّ نفراً من المستغلِّين نشطوا فى ظل الدستور الجديد فى جمع الأموال بأى طريقة ، لأن حكومة الإدارة لم تضع ضوابط كافية على شئون المال ، ثم إنها كانت حكومة قليلة المال ما تزال تستدين من الأغنياء، وكانت تتساهل معهم فى مقابل ذلك ، فكثر المتموِّلون عن غير الطريق الشرعى ، حتى كان منهم مَنْ أَقْرَضَ الحكومة عشرة ملايين من الجنيهات ، وأصبحت اقتصاديات البلاد فى يد المياسير أو أغنياء البورجوازيين من تجار خضر ولحوم وأسماك ومقاولين وموِّردين للجيش ومموِّنين للأسطول ، وقد نهض أولئك الرجال بالتجارة والصناعة نهضة كبرى ، ولكنهم أدخلوا فى البلاد فساداً أخلاقيًا خطيراً ..

وشعر مجلس المديرين بأنهم فى خطر ، وبحثوا عن مخرج ، ونشط الإرهابيون من بقايا اليعاقبة فى طلب الحُكْم ، وانتشرت الشائعات بأن الملكيين عائدون ، وفى مايو ١٧٩٩م انتخب مجلس المديرين النائب «سييس» لرياسته وإنقاذ نظامه ، ورأى سييس ألَّا مخرج إلا بالاستعانة بالجيش ، ومضى يبحث عن قائد .. وفى ذلك الحين عاد نابليون من مصر وعلى رأسه أكاليل الغار من انتصاراته فى إيطاليا أولاً ثم فى مصر ثانياً ؛ فاستقبله الشعب استقبال الأبطال وأشار مورو على سييس بأن يعهد فى الأمر إلى نابليون ، وأيده فى ذلك فوشيه وزير البوليس وتاليران وزير المالية ، وتم تعيين نابليون قائداً لجيش باريس ، واتفق المديرون على أن تُحَلَّ المجالس التشريعية ، ويُلْغَى نظام الديركتوار ، وتتولى الأمر حكومة قنصلية تتكون من ثلاثة قناصل .

وفى ليلة الثامن عشر من شهر برومير الثورى (٩ نوفمبر ١٧٩٩م) قام «نابليون» بطرد النواب من المجلس ، وأعلن حَلَّهُ وسقوط حكومة الديركتوار .. وقامت حكومة القنصلية وعلى رأسها : نابليون وسييس ودوكلو .. أما هذا الأخير فقد استقال ، ولم يلبث نابليون أن طرد سييس وانفرد بالحكم ؛ وبدأت حكومة القنصل الواحد الذى صار «إمبراطوراً» فيما بعد .

شاعر يقتل شاعراً

يُعَدُّ ابنُ عَمَّار الشاعر الأندلسى المعروف من أعاظم شعراء العربية ، بل أُقرِّر أننا لا نكاد نجد شاعراً آخر فى الأندلس يجاريه فى صياغته للشعر الجيد ، وقدرته على ابتكار أجمل المعانى ووضعها فى ثوب بديع فى أى وقت شاء ، وسأضرب مثالاً واحداً يؤيد ما أقول وهو يُغْنى عن كلام كثير ، فقد وقع هذا الرجل فى يد صديقه القديم المعتمد بن عَبَّاد صاحب إشبيلية وكانت صداقتهما قد انقلبت عداءً مريراً ، وكان من الواضح أن ابن عبَّاد قاتله لا محالة بسبب سوء تصرُّفه معه ، فأرسل ابنه يزيد الراضى ليأتى به من قرطبة إلى إشبيلية ، وقيَّد هذا ابن عمَّار بالحديد فى يديه ورجليه ، وحمله مقيَّداً على هذه الصورة بين عِدْلَىْ تِبْنٍ على هجنٍ زوامل . وعلى هذه الصورة المزرية - وهو مُدَلًّى على الهجين ورأسه إلى أسفل فى ناحية ورجلاه فى ناحية - استطاع هذا الرجل أن يقول هذا الشعر الجميل :

قَالُـوا أَتَى الرَّاضِـى ، فَقُلْـتُ لَعَلَّها
خَلَعَـتْ عَلَيْـهِ مِـنْ صِفَـاتِ أَبِيـهِ
فَـأْلٌ جَـرَى ، فَعَسَى المُؤَيَّـدُ وَاهِباً
لِى مِـنْ رِضَـاهُ وَمِـنْ رِضَـاءِ أَخِيـهِ

قَالُوا نَعَمْ ، فَوَضَعْتُ خَدِّى فى الثَّرَى
شُكْراً لَهُ وتَيَمُّناً بِبَنِيهِ
يَا أَيُّهَا الرَّاضِى وَإِنْ لم تَلْقَنِى
مِنْ صَفْحَةِ الرَّاضِى بِمَا أَدْرِيهِ
هَبْكَ احْتَجَبْتَ لِوَجْهِ عُذْرٍ بَيِّنٍ
بَذْلُ الشَّفَاعَةِ أَىُّ عُذْرٍ فِيهِ ؟
سَهْلٌ عَلَى يَدِكَ الكَرِيمَةِ أَحْرُفٌ
فِيمَنْ أَسَرْتَ ، فَتَنْثَنِى تَفْدِيهِ

فأى شاعرية هى أشدُّ فيضاً وألطف سلاسة من هذا الكلام ؟!

وأى مكان هو أبعد عن صياغة الشعر من مكان هذا الرجل على الهجين على الصورة التى ذكرناها ؟!

لكن ابن عمّار – فى الحقيقة – كان رجلاً مجرَّداً من الخُلُقِ الكريم ، ولم يكن قلبه ينبض نبضاً خيِّراً أبداً . كان سكِّيراً لا يَكُفُّ عن الشراب ، وكان لئيماً لا تُثمر عنده العارفة [1] ، وكان خَوَّاناً لا يرعى عهداً ، بل كان منعدم الضمير أصلاً ؛ حتى لقد كان يستنجد ويستشفع بملوك النصارى دون كرامة أو خجل.

اتصل هذا الرجل أول الأمر بالمعتمد بن عبّاد صاحب إشبيلية ، ولم يكن المعتمد بالملك العظيم ولا الأمير الجليل ، وإنما هو كان رئيساً صغيراً ، يحكم إشبيلية وما حولها فى عصر الطوائف ويؤدى جزية إلى مَلِك قشتالة ، ولكنه

١- أى : الإحسان ، أو المعروف .

كان شاعراً مجيداً مفطوراً على قول الكلام الجميل ، وكان أميراً فما كانت به حاجة إلى إراقة ماء الوجه فى مدح من يستحق ومن لا يستحق على أسلوب الكثيرين من شعرائنا الماضين .

وكان ابن عبّاد رجلاً عاطفيًا ، سريع الرضا ، سريع الغضب ، فأحب ابن عمّار وأُعجب بشعره ، وجعله نديمه وصاحبه لا يكاد يترك مجلسه إلا لماماً. ولكن ابن عمّار كان يعرف أن صاحبه عاطفى سريع الغضب ، ويعرف أنه إذا غضب لم يدرِ ماذا يفعل ، فكان يشعر فى نفسه أن صاحبه ابن عبّاد قاتله فى يوم من الأيام ، لأن هذا الحب الشديد إذا انقلب صار غضباً شديداً .

وقد كان ، ووقعت النفرة بين الصديقين ، وكان ابن عمّار هو الجانى على صاحبه ، فقد بدت منه بدرات خيانة وغدر وقلة وفاء ، ثم خان صاحبه جملةً ، وأراد أن يستبدَّ بمرسية عندما صارت لابن عبّاد ، وأقام عليها صاحبه ابن عمّار ، ثم وقع فى يده أخيراً كما حكينا ، فأمر به فحُبس فى محبس ضيّق أسفل القصر .

وكان ابن عمّار قد قال فى صاحبه شعراً سيّئاً جدًّا حتى اتهمه فى شرفه ، فلم يكن من السهل عليه أن يصفح عنه ، ولكنه - كما قلنا - كان رجلاً عاطفيًا ، فتشفَّع فى ابن عمّار ناسٌ ، فوعدهم خيراً ، ورجاهم ألا يذيعوا الخبر حتى يعرف ما هو فاعل .

وبلغ ابن عمّار الخبر ، وعرف أن المعتمد يريد أن يظل الأمر سرًّا حتى يستقر رأيه . ولكن طبعه الشرير أَبَى عليه إلا أن يخالف ما اتُّفِقَ عليه ، فطلب - وهو فى السجن - ورقاً ليكتب شعراً فى مدح ابن عبّاد ، فأعطوه قطعتين

من الكاغد [1] ، فكتب القصيدة فى واحدة ، وكتب فى الأخرى رسالة إلى الرشيد بن المعتمد يُعْلِمُهُ فيها بأن المعتمد سيُفرِج عنه قريباً . وكان المعتمد لا يحب ابنه الرشيد هذا ، وكأنما كان يخشاه على نفسه ، ومن هنا فقد تصوَّر أن بين ابن عمَّار وابنه هذا شيئاً ، فأغضبه تصرُّف ابن عمَّار ، وخاف أن يغدر به مرة أخرى ، وكان عاطفيًا كما قلنا ، إذا غضب لم يَدْرِ ماذا هو فاعل ..

ولهذا ، فما كاد يعرف خبر الرسالة التى أرسلها ابن عمَّار إلى ابنه الرشيد حتى نهض وقد أعماه الغضب ، وأخذ - فيما زعموا - طبرزيناً (أى : فأساً ذات حدَّين) وهبط إلى حيث كان ابن عمَّار سجيناً ، ودخل عليه ، ففزع الرجل وشعر أن منيَّته قد حانت ، فزحف فى قيوده ليقبِّل قَدَمَيِ المعتمد ، ولكنَّ هذا عاجله وأجهز عليه .

كان ذلك فى منتصف ليلة من ليالى شعبان سنة ٤٧٧هـ .. وإن الإنسان لا يشعر بأسف شديد على ما أصاب هذا الرجل ، فقد فعل هو بغيره ما هو أسوأ من ذلك .. وإنه لمن الغريب حقًّا أن توجد هذه المَلَكة الشاعرة الفريدة فى بابها فى نفس لا يصيبها بارقٌ من خير أو إحسان .

١- «الكاغد» كلمة معرَّبة تعنى : الورق .

ميلاد الثورة الروسية

تلك رحلة تمت كلها فى ظلام الليل ، رحلة «لينين» ورفاقه من قادة الثورة الروسية من منفاهم فى سويسرا إلى روسيا عن طريق السويد وفنلندا .. كانت الحكومة الروسية القيصرية تعانى إذْ ذاك آلام النزع الأخير ..

كانت جيوشها قد تحطمت تحت ضربات الأداة العسكرية الألمانية الجبَّارة خلال سنة ١٩١٦م وخلال شهور الربيع من سنة ١٩١٧م وأعلن وزير الحربية الروسى أن الجيش الروسى لم يعد يستطيع الاستمرار فى الحرب وأشار بطلب الهدنة ، ولكن حكومة القيصر لم تستطع أن تحزم أمرها ، واستمر الألمان يُنزلون المذابح بجنود الروس . وعجزت الحكومة القيصرية عن ضبط الجيش ؛ فانفرط عقده ، وانتثر [1] الجنود جماعات مهزومة ذليلة عائدة إلى بلادها وفى نفوس أفرادها من المرارة على الحكومة القيصرية مراجل تغلى بالحقد والكراهية والرغبة فى الانتقام .

واستقالت الحكومة ، وعهد القيصر إلى «كيرينسكى» وكان زعيم الجبهة المعتدلة من الثوريين فى تأليف حكومة ، وألَّفها ، ولكنه لم يجرؤ على أن يعترف بالهزيمة ؛ كان يخشى أن يُمْلِى الألمان المنتصرون عليه معاهدة تقصم ظهر

١- أى : تفرّق.

روسيا . وأوجس الألمان خِيفةً من طول أمد الحرب على الجبهة الشرقية ؛ إنهم يريدون التعجيل بسقوط المارد الروسى لكى يستطيعوا سحب قواتهم من الجبهة الشرقية لتعزيز جبهتهم الغربية التى بدأت تتصدَّع تحت ضربات الحلفاء بعد أن انضمت إليهم الولايات المتحدة الأمريكية .

كان فلاديمير إيليتش أوليانوف - المعروف باسم «لينين» - يعيش إذْ ذاك مع هيئة من عُتاة الثوريين الروس فى زيوريخ . كان ينادى بضرورة إيقاف تلك الحرب ويقول إن الإمبرياليين يغذونها على حساب الجنود وكلهم من البروليتاريا أى : العمال . وكان يقول إن العمال في العالم كله ينبغى أن يكونوا جبهة واحدة ، وأن أعداءهم هم الرأسماليون فى كل مكان . كان شعلة من الذكاء والنشاط . كان رجلاً خطراً يستطيع أن يُقيم الدنيا ويقعدها . كان هارباً من روسيا . أقام فى فرنسا زمناً ثم لجأ إلى سويسرا ، وظل فى منفاه عشر سنوات لم تهدأ له خلالها حركة ، فقد خلقه الله ثوريًّا جريئاً ، ومغامراً واثقاً فى عقيدته الشيوعية ثقة لا حَدَّ لها ، لهذا فكَّر الألمان فى استخدامه للإسراع باستسلام الروس ، لأنه كان - كما قلنا - حانقاً على الحكومة القيصرية ؛ يتهمها بإدخال روسيا فى الحرب دون فائدة وبإطالة أمد الحرب لإهلاك المساكين من العمال والفلاحين .

وفى ٩ أبريل ١٩١٧م خرج «لينين» ونحو ٣٢ من أنصاره من برن إلى استوكهولم فى قطار مقفل أى : لا يسمح لأحد بالنزول أو الخروج منه حتى يصل إلى ساحل البلطيق ، ثم يعبر المسافرون بحر البلطيق إلى استوكهولم ومنها إلى هلسنكى عاصمة فنلندا ، وكانت فنلندا إذْ ذاك من أملاك روسيا . وتلك

هى أسطورة انتقال لينين إلى روسيا عبر الأراضى الألمانية وتحت حراسة جنود ألمان. ووصل رَكْبُ الثائرين العائدين إلى الوطن إلى استوكهولم فى بحر ثلاثة أيام ، أى : فى الثانى عشر من أبريل ١٩١٧م .

وكان الألمان قد أذاعوا خبر وصوله لكى يتحرك الشيوعيون لاستقباله فيكون ذلك أدعى إلى سرعة تنفيذ ما رسموه . ولقى لينين استقبالاً حارًّا فى استوكهولم من أنصاره من الماركسيين ، ومن استوكهولم دخل فنلندا ، واستقر فى بيلو أوستروف ؛ حيث توافد الشيوعيون الذين كانوا قد هربوا من السجون والمنافى ؛ منتهزين فرصة الفوضى التى ضربت بِجِرَانِها [1] على روسيا كلها إذْ ذاك .

وركب لينين وصحبه القطار من بيلو أوستروف فى طريقهم إلى بتروجراد . كان القطار يسير فى بطء شديد ، وكان فلاديمير إيليتش أوليانوف فى قلق شديد ، فقد كان منذ خرج به القطار من سويسرا يَتخوَّف من مؤامرة أو خيانة تودى بحياته ومن معه . كان طوال الوقت يتحدث أو يقرأ الصحف أو يكتب . ولم ينم إلا لحظات قليلة جدًّا ، فقد كان يشعر أن لقاءه مع روسيا بعد عشر سنوات من المنفى سيكون لقاءَ قَدَرٍ حاسم . كان يرسم فى ذهنه الخطط لإشعال الثورة بأسرع ما يستطيع ، لأن النفوس غاضبة حانقة .. وكان العمال والزراع فى كل مكان فى روسيا ينتظرونه انتظار المُخلِّص . وقد سُرَّ لينين عندما وجد الجنود والبحارة ينضمون إليه للانتقام من الحكومة القيصرية التى ذاقوا منها الويلات .

١- أى : انتشرت وعمَّت البلاد .

كانت الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق من مساء الخامس عشر من أبريل ١٩١٧م عندما دخل القطار محطة بتروجراد مُنْهكاً مُتعباً . فوجئ لينين بأن المحطة زاخرة بالناس فى انتظاره ، لم يجد رجال الحزب الشيوعى فقط ؛ بل وقف الجنود صفوفاً وقفة عسكرية لتحيته ، وما إنْ توقَّف القطار حتى صدحت الموسيقى بنشيد المارسييز الفرنسى ، وتعالى هتاف الناس بسقوط الحكومة القيصرية وقيام ثورة التحرير . وسادت المحطة فوضى لا نهاية لها ، وتقدمت لجنة الاستقبال بقيادة مكسيموف ، واستقبلت لينين استقبال رئيس دولة . وسار الرجل تحت أقواس نصر متوالية وهو لا يعرف كيف تم تدبير ذلك كله بهذه السرعة . وتقدَّم الموكب شليابنيكوف رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى بتروجراد . كان لينين يقول إنه رئيس حزب الأغلبية (البولشيفيك) فى حين أن رئيس الوزارة كيرينسكى - وكان ثوريًا مثله - كان رئيس حزب الأقلية (المنشيفيك) .

ووقف لينين صامتاً والأضواء مسلَّطة عليه . كان يعرف أن الثورة العظمى على الأبواب . كانت أفكاره تتوالى فى سرعة خاطفة ، وكان يشعر شعوراً عميقاً بأن العالم كله على أبواب عصر جديد .. كان ذلك فى منتصف ليلة الخامس عشر من أبريل ١٩١٧م.

مَنْ قتل لوركا ؟

هذه مدريد عاصمة إسبانيا فى ربيع سنة ١٩٣٦م . لقد تحولت إسبانيا منذ حين قليل إلى جمهورية يسارية يحكمها الرئيس مانويل آثانيا . سماء السياسة ملبَّدة بالغيوم ، والحكومة الجمهورية تبدو وكأنها مغامرة خطرة لن يكتب لها النجاح ، لأن إسبانيا التى كانت تعانى إذْ ذاك من الفقر والفوضى وسوء الإدارة كانت تنوء فى نفس الوقت بحمل ثقيل من تقاليد المَلَكيَّة ، وأثقال الكنيسة الكاثوليكية يكتم أنفاسها ، حتى كان الناس لا يتصورون إسبانيا بغير مَلِك وأشراف وأساقفة وكرادلة .

ووقفت الجمهورية الوليدة تدفع عن نفسها هجمات قاتلة من الملكيين والإقطاعيين ورجال الكنيسة ، وكانت المناقشات حامية بين صحف الملكيين وعلى رأسها الـ A. B. C. وصحف اليسار وعلى رأسها جريدتا Voz و Sol.

وانقسم رجال الفكر شِيَعاً وأحزاباً تبدأ من الماركسية الصريحة إلى الملكية الجامدة . وكان المناخ الفكرى فى إسبانيا عامراً بالحركة والنشاط ، يقوده أفذاذٌ فى عالم الشعر والنثر . كانت المسارح عامرة بالنشاط ، وفى ذلك الربيع كنت تشهد على مسارح مدريد مسرحيات لآرنيتس وخوسيه ماريًا

بيمان ومونيوت سيكا ولوكادى تينا وخارديل بونتيلا وآثورين وأونامونو وخاصة فيدريكو جارثيا لوركا . كان جارثيا لوركا إذْ ذاك نجم المجتمع ونجم المسرح والشعر فى آنٍ واحد . كان فى الثلاثين من عمره لأنه وُلد فى الخامس من يونيو ١٨٩٨م . كان شابًا جميلاً موهوباً نشيطاً أسود الشعر واسع العينين يملأ الدنيا من حوله شعراً ونثراً ومحبة . فى ذلك الحين نشر مسرحية «الزفاف الدامى» وديوانه المسمَّى «الأغانى الأولى» .

فى ذلك الوقت عاد من روسيا الأديب رافاييل ألبرتى صديق لوركا الحميم ، وأقيم له حفل تكريم حضره لوركا وأنطونيو ماتشادو ولويس شيرنودا وخوسيه برجامين والمخرج السينمائى لويس بونويل وغيرهم . وأُلقيت خطابات كلها هجوم على الفاشيَّة والاستبداد .. وكان جارثيا لوركا من المتكلمين .

فى ١٨ فبراير من نفس السنة أقيمت الانتخابات واكتسحت الجبهة الشعبية El Frent Poaular كل خصومها ، واجتمع نفرٌ من الأدباء وأصدروا بياناً يعلنون فيه قدوم السلام العالمى ، ونشرت البيان جريدة Sol (أى : الشمس) جريدة الجبهة ، وأعلن نفرٌ من الأدباء انضمامهم إليها ومن بينهم جارثيا لوركا وأليخاندرو كاسونا وآثورين وغيرهم ، وعَمَّ التفاؤل القلوب ، وكان لوركا من بين المرحبين بالعصر الجديد ، ولكنه لم يكن رجل سياسة ، إنما هو كان رجل فكر وشعر وفن ولا زيادة .

وفى يوليو ١٩٣٦م نجد لوركا أوسع ما يكون نشاطاً . لقد فرغ من مسرحية برناردا ألبا ، وقرأها الشاعر على أصحابه فى دار الدكتور أويسيبيو أوليفر .

وكان من بين الحاضرين صديقه داماسو ألونسو الذى أصبح فيما بعد أستاذاً للأدب الإسبانى فى جامعة مدريد . كان جارثيا لوركا يقضى صيف كل سنة فى قريته «فوينتى باكيروس» فى فيحاء غرناطة . كان يستعد للسفر ، وجرى الحديث فى تلك الليلة بين لوركا وداماسو ألونسو عن صديق شاعر انخرط فى السياسة وغاص فيها إلى أذنيه ، فقال لوركا :

«أما أنا ؛ فلن أكون سياسيًا أبداً .. إننى ثورى - وهذا حق ؛ لأنه لا يمكن لإنسان أن يكون شاعراً إلا إذا كان ثوريًا - .. ولكننى لن أكون سياسيًا أبداً .. أبداً ..».

وكانت حالة الأمن فى إسبانيا غير مطمئنة ، فالطرق الكبرى عامرة بجماعات من قُطَّاع الطريق ، انتهزوا قيام الحكومة الجمهورية ، واستطالوا على أموال الناس ، وخاف أصحاب لوركا عليه ونصحوه بألا يذهب إلى غرناطة فالطريق طويل ومَخُوف . كان أكثر المُلِحِّين عليه فى ذلك صديقه رافاييل مارتينث نادال ، ولكنه أصر على الرحلة وقال وهو يضحك بقلبه الشاب ووجهه الباسم المتفتح للحياة : «فَلْتَكُنْ مشيئةُ الله» .

وفى ١٨ يوليو ١٩٣٦م أعلن الجنرال فرانكو الثورة على الجمهورية وهو - بعد - فى المغرب ، واشتعلت البلاد ناراً ، فإن حكومة آثانيا جعلت[1] تستعد لمواجهة هذه الثورة العسكرية . وأقبل أصدقاء لوركا يكررون الرجاء بألا يرحل .. كانت أعمال العنف والفوضى قد عمَّت البلاد وقطعت الطرق.

١- أى : أخذت .

ولكن لوركا الشاب لم يخف ؛ فهو ليس غنيًا ولا رجل سياسة . خرج من مدريد فى التاسع عشر من يوليو ووصل بالفعل إلى أحواز غرناطة . وفى ليلة الحادى والعشرين من يوليو ١٩٣٦م - والظلام دامس والخوف يملأ الجو - كان لوركا يقترب من قريته ومسقط رأسه «فوينتىباكيروس»..

وفى سكون الليل الدافئ انطلقت رصاصات هَوْجَاء ؛ وصرعت الشاعر الشاب .. وعثر الناس على جثته مع خيوط الفجر الأولى ، وما أسرع ما ملأ الخبر الدنيا . مَنْ قتل لوركا ؟ .. الله وحده يدرى . ألم تكن آخر كلماته لمودِّعيه : «فلتكنْ مشيئةُ الله» ؟.

سيدة صالحة تنشئ
أقدم جامعة إسلامية

هذه مدينة «فاس» دُرَّة مدائن المغرب الإسلامى ، وعاصمة الفكر والعلم فيه ، ونحن فى أيام الإمام يحيى بن محمد بن إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب - خامس أمراء الأدارسة فى المغرب الأقصى الذى بدأ حكمه سنة (٢٣٤هـ / ٨٤٨م) - .

الدولة فى أَوْجِهَا الحضارى ، لأن أَوْجَها السياسى ولّى مع وفاة إدريس الثانى المتوفى فى أول ربيع الأول (٢١٣هـ / ٨٢٨م) ، وهو المؤسس الثانى لمجد الأدارسة وبانى دولتهم ، وهو الذى جعل لها فى تاريخ الغرب الإسلامى ذلك المجد العظيم أيام يحيى بن محمد الإدريسى . كانت أيام دَعَةٍ[1] ورفاهية وازدهار حضارى ، فقد امتدت دولة آل إدريس فى شمال المغرب الأقصى ومدَّت رواقها حتى حوض نهر الملوية شرقاً ووصلت فى الجنوب إلى وادى أم الربيع ، واتسعت فاس وتمدَّنت ، وتوافد عليها الناس من كل نواحى المغرب والأندلس ، وفاس - كما نعلم - تتكون من مدينتين التحمتا معاً على مرِّ السنين ، فأما الأولى فهى عُدْوَة القرويين وهى المدينة الغربية التى ابتناها إدريس الثانى واتخذها عاصمة ، وأما الثانية فهى المدينة الشرقية وتقوم على الضفة الشرقية من وادى خربُ المتفرع من نهر سَبُو ، وهذه الثانية

١- الدَّعَةُ : السكون والهدوء . والمراد هنا : استقرار الأمور فى الدولة .

تسمى عُذوَة الأندلسيين ؛ لأن الذين أنشأوها كانوا من أهل الأندلس ، ممن أخرجهم الحَكَم الربضىّ بعد هيج الربض ، فاستقروا فيها وعمَّروها وأصبحت عُذوَتُهُمْ هذه تضاهى عُذوَة القرويين فى العمارة والاتساع والازدهار .

وفى أيام الإمام يحيى بن محمد ازدحمت فاس بقسميها بالسكان ، وضاقت بهم المنشآت والمرافق العامة وخاصة المساجد ، وكان المسجد الجامع فى عُذوَة الأندلسيين هو جامع الأشياخ ، والمسجد الجامع فى عُذوَة القرويين هو جامع الشرفاء ، وضاق الجامعان بالمصلِّين واحتاج الأمر إلى مسجدين جامعين جديدين وجديرين بالرُّواء الذى بلغته المدينة فى أيام يحيى ابن محمد .

فى ذلك الحين توفى فى فاس رجل من سَرَاة الأندلسيين يسمَّى محمد ابن عبد الله الفهرى ، بسط الله له فى الرزق ووسَّع عليه فى المال ، وخلَّف من بعده ابنتين من صالحات النساء ، الأولى هى فاطمة المعروفة بأم البنين والثانية هى مريم ، فصار إليهما مال أبيهما العريض .

وفى ذات ليلة كانت فاطمة تبيت فى دار أختها مريم ، وكان الوقت رمضان ، والناس يقطعون الوقت بين الإفطار والسحور فى الصلوات والتراويح والذكر ، فنعست عين فاطمة بُرْهَةً ثم أفاقت وقالت لأختها : لقد رأيت فى غفوتى تلك الإمام إدريس الشهيد ، رأيته فى ثياب خضر على حصان أبيض ، فنادانى : يا فاطمة ، ألا تتقين الله ؟ قلت : يا مولاى وابن سبط رسول الله ، أى شىء فعلته حتى توجَّه إلىَّ هذه المقالة ؟ قال : مالك

كثير يكفيك أنت وأهلك ، وأهل فاس ضاق بهم مسجدهم ، فَلِمَ لا تنظرين فى أمرك وتبنين لهم مسجداً يَبْنِ الله لك به قصراً فى الجنة ؟.. فقالت مريم: بُشْرَاكِ يا أختاه .. هذا سعد أرادك الله به ، فبادرى الأمر من غدٍ بإذن الله ..

وفى الصباح أتاها الوزيرُ طارقاً من قِبَل الأمير الإمام يقول : أرسلنى الأمير إليك أسألك أن تُقرضيهِ قرضاً حسناً حتى تتيسَّر الحال ، فإن النفقة عليه كبيرة والعائد قليل . فرفعت يديها إلى السماء شاكرة لله سبحانه وتعالى وقالت: لا أملك لك ولا للأمير شيئاً يا أبا الحسن ، ومالى هذا مُحبَّسٌ [1] . فتعجَّب الرجل وقال : ومُذْ [2] متى حَبَسْتِهِ ؟! قالت : أنا لم أحبس مالى ولكن حبسه الله سبحانه وتعالى وأرانى فى المنام الإمام إدريس الشهيد طيَّب الله ثراه أمس وأمرنى أن أبنى للمسلمين جامعاً ، وقد آليت على نفسى أن أنصاع لما أمرنى به ابنُ بنت نبيِّنا صلوات الله عليه .. وعليَّ عَهْدُ الله لا أنفقت درهماً منه إلا فى بناء المسجد .

ولم يَحِرِ الرجل جواباً [3] ، ومضى وحكى لإمامه يحيى بن محمد ما سمع من فاطمة ؛ فقال الأمير : الله أكبر ، هذا هو حُكْم الله لا حكمك ولا حكمى فى المال ؛ انهضْ بنا إلى فاطمة . ونهضا إليها ، فهنَّأها الأمير بالبشرى وقال

١- مُحبَّسٌ ، اى : موقوفٌ لله (او وَقْفٌ لله) .
٢- مُذْ : مُنْذُ .
٣- أى : لم يُجِبْ (أو لم يَرُدّ على كلامها ، وانصرف) . والوَحَرُ هو شدة الغضب والغيظ الناتج عن الوساوس والظنون ، فكأن الرجل يشكُّ فى صدق كلامها ، ولكنه لم يجد كلاماً يردُّ به عليها ؛ فاسرع ليُبلغ الأمير - الذى فهم الأمر على وجهه الصحيح - .

لها : لقد طابت نفسى عن قطعة من الأرض واسعة أعطيك إياها للمسجد . فقالت: لا واللهِ أيها الأمير ، ما تُشترَى الأرض إلا من مالى ، وما يُوضع فيها حجر إلا من مالى . واشترت فاطمة من مالها أرضاً واسعة كانت حقلاً يملكه رجل من هَوَّارة . ومن بدائع صنع الله أن هذه الأرض كانت تضم كل مادة البناء: ففى أرضها رمل وتراب صُنِعَ منه الملاط ، وحجر كَدَّان صُلب نُحتت منه الحجارة ، وأشجار سامقة استخدم خشبها للمسجد ، وصلصال جميل إذا أُحْرِقَ خرج منه زليج - أى : قاشانى [1] بديع - ..

وبدأ البناء سنة (٢٤٥هـ / ٨٥٩م) واستمر البناء أربع سنوات قام للإسلام بعدها جامع من أجمل مساجد الإسلام «جامع القرويين» الذى أصبح جامعة . فقد ألحقت به فاطمة داراً لقراءة القرآن ، وفيها كان يجلس أهل العلم يتدارسون ، واتسعت حلقات الدرس حتى أصبحت «جامعة فاس» أقدم جامعات الدنيا .

وكل ذلك ببركة المنام السعيد - الذى رأته فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهرىّ فى منتصف ليلة من ليالى رمضان سنة (٢٣٥هـ / ٨٤٩م) - ..

ومن الطريف أن أختها مريم بَنَتْ من مالها مسجداً جامعاً فى عُدْوَة الأندلسيين . وإلى يومنا هذا تُزْهَى فاس بجامعيها الجميلين : «جامع القرويين» وهو «جامع فاطمة» ، و«جامع فاس» وهو «جامع مريم» .

١- القاشانى (أو القيشانى) : نوع من الخزف .

ـريمة بشعة
ـى سبيل العرش

فى أواخر شهر المحرم سنة ٣٦٦هـ / سبتمبر ٩٧٦م تدهورت صحة الخليفة الأموى الأندلسى الحَكَم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر حتى خِيفَ عليه . وكما هى العادة فى تلك العصور ، بدأ الصراع الخفىّ بين الطامعين فى العرش ومنافسيهم .

ولم يكن للحَكَم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م) إلا ابن واحد صغير فى العاشرة من عمره يسمَّى «هشاماً» ، أنجبه الحَكَم وهو فوق الستين من العمر ، فكان حبه له وخوفه عليه شديدين ، لأن الله كان قد رزقه قبل ذلك بغلام سمَّاه عبد الرحمن ، ولكن هذا الغلام مات طفلاً ، فلما رُزِقَ بهشام هذا استطار به فرحاً ، واهتم بتربيته أشد الاهتمام .

وكانت أم هشام جارية بشكنسية تسمَّى «صُبحاً» ، والبشكنس أو البسكونس هى الصورة العربية للفظ «الباسك» ، وهم الجنس الذى يعيش فى شمال غربىّ إسبانيا وجنوب غربى فرنسا فى الطرف الغربى لجبال البُرت (بضم الباء ، وهى التى نسميها نحن جبال البرانس خطأ) ، وكانت جارية ذكية جميلة طَمُوحاً ، وكان الحَكَم المستنصر شديد الولع بها لا يقدِّم واحدة من جواريه عليها ، وكان هو نفسه رجلاً أقرب إلى الزهَّاد لا يهتم

بالمتاع إلا قليلاً ، وقد قضى معظم عمره فى خدمة أبيه عبد الرحمن الناصر ، فلما تُوفِّى هذا كان الحَكَم المستنصر فى حدود الستين .

ثم إن الحَكَم كان خليفة عالماً ، كان العلم أحب شىء إليه ، وكان يقضى معظم فراغه مع العلماء والكتب ، وقد أنشأ فى جناح من القصر مكتبة عامرة بالمؤلفات تضم نحو نصف مليون كتاب ، وكان يقرأ معظم هذه الكتب ويناقش العلماء فيها ، ولهذا كان جهد الرجل مقسَّماً بين شئون الدولة وشئون العلم .

وكانت أحوال الأندلس إذْ ذاك راخية [1] آمنة .. كان عبد الرحمن الناصر قد حكم خمسين سنة متوالية أنجز فيها أعظم عمل سياسى حضارى قام به خليفة ، فقد قضى على الفوضى والحروب الأهلية ووحَّد البلاد بعد أن انتهى من أمر الثوار فى كل مكان ، ثم أعاد النظام إلى الدولة ، وتمكَّن من قهر قوات النصارى فى الشمال ، واتَّبع معهم سياسة حكيمة تجذبهم إليه ، فما لبثوا أن اعترفوا جميعاً بسيادته ورياسته عليهم حتى كانوا يحتكمون إليه ، وفى أيامه بَلَغت الدولة الأموية الأندلسية أَوْجَها من القوة السياسية والحضارية.

ثم جاء الحَكَم المستنصر فواصلَ عمل أبيه ، واهتم بالعلم اهتماماً خاصًا ، فبلغ الأندلس أَوْجَهُ فى العلم ، وأصبحت قرطبة دُرَّةَ بلاد الدنيا حقًّا من كل ناحية .

وذلك كله كان يفرض على الحَكَم المستنصر عملاً متصلاً وجهداً عظيماً ؛ فكان الرجل يعمل ليل نهار .

* * *

١- الرخاء : سعة العيش وحسن الحال .

وفى مثل هذه الظروف ، عندما تتزاحم المشاغل على ولى الأمر ، تجده ينصرف بعض الشىء عن شئون القصر ومؤامرات ثعالبه ، وكانت «صُبح» البشكنسية ثعلبة ماكرة ، كانت تعلم أن ابنها صغير وأن أباه قد تخطَّى السبعين ، وكانت ترى أنه لن يعيش فى الغالب حتى يبلغ الغلام أَشُدَّهُ ، ولهذا كان لابد لها من أنصار يشدُّون أَزْرَها ويعينونها حتى إذا أزفت[1] الساعة صار العرش إلى ابنها تحت وصايتها .

فى ذلك الوقت دخل القصر موظف صغير يسمَّى محمد بن أبى عامر ، كان خاله من رجال الحكم ، وكان هذا فقيهاً يتولى الكثير من أعمال الإدارة ، فسعى لابن أخته ، فدخل فى خدمة القصر ، وولَّوه إدارة أعمال ولى العهد الأول عبد الرحمن بن الحكم ، فلما مات عبد الرحمن وجاء هشام بن الحكم تولى محمد بن أبى عامر إدارة أمواله وأملاكه أيضاً .

وبحكم عمله هذا كان كثير الاتصال بصُبح البشكنسية والدة الأمير ، وكان ابن أبى عامر فى ذلك الحين فتى جميلاً فارع الطول ، فَخَفَّ[2] على «صُبح» البشكنسية ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن شيئاً ما نشأ بينهما ، ونحن نستنكر ذلك ، لأن القصور فى تلك العصور كانت حافلة بالجواسيس والعيون ، وكل جارية أو امرأة كان لها عيون على صاحباتها ، وكذلك كان الحال مع رجال القصر جميعاً ، ولهذا فقد كانت نساء الخلفاء وجواريهم شديدات الحرص على سمعتهنَّ ، لا تقترف الواحدة منهنَّ شيئاً يمكن أن

١- أى : حانت .
٢- خَفَّ فلان على القلوب ، اى : أنِسَتْ به أو استراحت إليه .

يؤخذ عليها ، لأن العقوبة كانت قاسية . ثم إن «صُبحاً» كانت مشغولة بابنها وبمؤامرات القصر فلم يكن لديها وقت لتفكر فيه في المتاع [1] ، وكان ابن أبي عامر رجلاً ذكيًا لا يغامر بنفسه في مثل هذا الأمر الذي قد يكلّفه حياته أو عمله في القصر على الأقل ، أما ما شاع وذاع من كلام الناس حول علاقة آثمة بين «صُبح» وابن أبي عامر فهو من لغو الناس وما يتقوّلونه عادة على القصور وأهل القصور ..

* * *

وكان ابن أبي عامر نفسه يفكر في أشياء أخرى كثيرة غير الهوى ، فكان مشغولاً بأمر نفسه ، فأخلص في خدمة ولي العهد وتدبير أموره حتى عهدت إليه «صُبح» في إدارة أموالها ، وبذلك أتيحت له الفرصة ليعلم الكثير من شئون القصر ، فتنبّه بحسّه المرهف إلى مشكلة العرش الذي سيخلو بعد قليل ولا مُرشَّح له ، وكان للخليفة إخوة أهمهم عبد العزيز ، وكان رجل علم أيضاً ولا اهتمام له بشئون السياسة - ولكنه كان أصلح الناس للعرش إذا تولى الخلافة - ، أما أخوه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر فكانت «صُبح» تخشاه كل الخشية ، لأنه كان شابًا ذكيًا نشيطاً يعمل مع أخيه الأكبر الحَكَم المستنصر في همة وإخلاص .

وكانت الصلة قد استحكمت بين «صُبح» وابن أبي عامر فصارحته بخوفها على ابنها ورجائها في أن يعيد إليه العرش ، فدخل إليها من هذه الناحية ، فضمَّته إلى جماعتها وعملت على النهوض بأمره ، فلم يلبث أن

١- أي : طلب المُتع .

أصبح «صاحب السَّكَّة» ، أى : مدير دار ضرب النقود ، وكانت فيه جرأة ، فمضى يبعث بالهدايا من الفضة المملوكة للدولة .. وبهذه الهدايا استمال قلوب الكثيرين والكثيرات وخاصة من نساء القصر . ولاحظ الحَكَم كثرة حديث النساء فى قصره عنه وإعجابهنَّ به ، فنقله من السَّكَّة إلى المواريث ، أى : مدير إدارة المواريث ، ثم نقله قاضياً لإشبيلية ، فمضى إليها دون أن يقطع علاقته بصُبح البشكنسية وحزبها ..

وعندما تضعضعت صحة الحَكَم ولزم غرفته استصدرت صُبح قراراً بتعيينه «صاحب الشرطة» ، أى : ما يشبه مدير الأمن العام .. وهذه الوظيفة كانت من كبار الوظائف فى النظام الإدارى الأندلسى ، فإن صاحبها يحمل لقب «وزير» ، ومن هنا انفتحت أبواب القصر مرة أخرى لابن أبى عامر ، فصار يدخل ويخرج ويتصرف كيف يشاء .

وكان رئيس الوزراء فى تلك الأيام يسمَّى «الحاجب» ، وكانت الوزارة فى الأندلس مُقَسَّمة بين ناس كثيرين ، فكان هناك أكثر من وزير ، وكان الوزراء يجتمعون فى دار تسمَّى «بيت الوزارة» ، ولكل وزير تَخَصُّصُه ، يرأسهم كلهم «الحاجب» ، وهو الذى يَلْقَى الخليفة ويتحدث معه فى شئون الدولة .

وكان الحاجب إذْ ذاك فقيهاً شاعراً يسمَّى جعفر بن عثمان المصحفىّ، وكان شاعراً مجيداً ، ولكنه كان إداريًّا سيئاً ، وكان الحَكَم قد نهض به إلى ذلك المركز الكبير لأنه كان يؤدبه وهو صغير . وقد أساء المصحفىّ الإدارة وملأ

الدولة بأولاده وأقاربه ؛ حتى أقام أحدَ أولاده [1] «صاحب المدينة» أي : حاكم قرطبة.

واتصلت به صُبح وكسبته إلى جانبها لكي يعمل على ضمان العرش لابنها الصغير ، ومن هذه الناحية توثقت العلاقات بين الحاجب المصحفيّ ومحمد بن أبي عامر ، وتكوَّن بالفعل حزب من الوزراء والحاشية والبطانة يعمل في خدمة صُبح وابنها .

وهنا طمحت نفس ابن أبي عامر إلى أن يبلغ ما هو أكبر من الوزارة، طمحت نفسه إلى أن يسود «الأندلس» ، لأنه لمح بذكائه المفرط خلوَّ الميدان وانفتاح الطريق .

* * *

لكي يحقق ابن أبي عامر هذا الحلم طلب إلى «صُبح» أن تُقْنِعَ الحَكَم بأن يندبه «قاضي العسكر» للجيش الأندلسي المقاتل في المغرب . وكان خلفاء بني أمية في خوف من الفاطميين أصحاب إفريقية (تونس) إذْ ذاك ، وكانت جيوش الفاطميين تصل إلى المغرب وتُرْغم القبائل على الدخول في طاعتها ، وعندما انتقل الفاطميون إلى مصر قام بهذا العمل نوابهم على إفريقية وأنصارهم ، ولهذا حرص الأمويون الأندلسيون على أن يكون لهم السلطان على المغرب الأقصى ، فاستولى الناصر على سبتة ومليلة ، بالإضافة إلى طنجة ، فلما جاء ابنه الحَكَم أرسل الجيوش لمحاربة الأدارسة ، وأنفق في ذلك مالاً كثيراً . ثم ندم على كثرة ما أنفق في هذا السبيل وطلب

١- أي : جعله .

أن يرسل رجلاً من رجاله ينظر فى هذا الأمر ، واستقر الرأى على أن يكون هذا الرجل هو محمد بن أبى عامر .

وقد ذهب ابن أبى عامر ، لا لكى يحقق فى أمر المال المنصرف بل لكى يعقد أواصر الصداقة مع رجال الجيش ليمهِّد لنفسه ، وبالفعل كسب صداقة الكثيرين من القوَّاد وأغدق عليهم الأموال ، ثم عاد إلى الأندلس وقد مهَّد الطريق لمستقبله كما رسمه لنفسه .

* * *

وجاء اليوم الموعود ..

فى (أول صفر سنة ٣٦٦هـ / أول أكتوبر ٩٧٦م) انتقل الحَكَم المستنصر إلى الدار الآخرة ..

وكان جعفر المصحفىّ ومحمد بن أبى عامر و«صُبح» البشكنسية قد أحكموا أمرهم ، فاجتمعوا بالليل قبل إعلان وفاة الخليفة ، ووضعوا خطة العمل ، وتتلخص فى مبايعة الأمير الصغير والاستعانة بالجيش فى القضاء على كل مُعَارِض ..

وتم هذا فى سواد الليل ..

ولكن : ما الحيلة فى «المغيرة» - أخى الحَكَم - وهو المرشَّح للأمر القادر على الاضطلاع به ، خاصة وأن مبايعة طفل بالخلافة لا تجوز ؟..

هنا نجد جعفر المصحفىّ ومحمد بن أبى عامر يتفقان على خطة إجرامية بشعة ..

وتحت ستار الظلام في الهزيع الأخير من الليل خرج ابن أبي عامر مع فرقة من الجند وقصد الأمير المغيرة . كان الشاب نائماً في فراشه آمناً عندما دخل عليه الجند ؛ فَزِعَ للأمر ، وسأل ابن أبي عامر أن يتّقي الله في دمه .. ولكن محمد بن أبي عامر أشار إلى الجند فهوت سيوفهم عليه ولم يغادروه حتى أسلم الروح ..

وعاد ابن أبي عامر وعلى يديه دم الأمير المسكين ، وأبلغ صاحبه جعفر المصحفيّ بتمام الجريمة .

وفي الصباح نُودِيَ بالصبيّ «هشام» الخليفة ..

ولم يجرؤ أحد على المعارضة لأن السيف كان مسلّطاً على الرءوس ..

وضاع دم «المغيرة» المسكين .

فى سواد الليل دبّروا مصرع

«قتيبة» الفاتح العظيم

فى أواخر شتاء سنة (٩٣هـ / ٧١٢م) انتهى قُتيبة بن مسلم الباهلىّ الفاتح العربى العظيم من فتح إقليم خوارزم ، وهو إقليم شاسع يدخل معظمه اليوم فى أراضى اتحاد الكومنولث ، ثم تقدَّم شرقاً فدخل إقليم طخارستان ، واحتل عاصمته «بلخ» ، ثم اتجه إلى الشمال فعبر نهر جيحون - أو أموداريا - واخترق إقليم الختل ، واقترب من حدود الصين .

كان قُتيبة يسير منذ حين فى بلاد الترك بعد أن أتم فتح بلاد الفرس ومَكَّنَ لأقدام المسلمين فى إقليم خراسان الشاسع وعاصمته «مرو» ، ورأى أن الجهد قد نال من جنده ، فقد كان الفصل شتاءً ، والثلوج تغطى الجبال الشاهقة - وهى جبال «قرقورم» التى يقع جزء منها اليوم فى أفغانستان - فأَذِنَ قُتيبة لجنده فى شىء من الراحة فى موضع قريب من «كاشغر» داخل حدود الصين .

وكان الأتراك قوماً محاربين لهم أجسام ضخمة ، وأصوات فخمة ، وكانوا يحسبون أن أحداً لن ينال من أرضهم منالاً ، حتى جاء قُتيبة العظيم فاقتحم عليهم بلادهم اقتحاماً ، واحتلَّ قواعدهم واضطرهم إلى الإسراع

إليه للتفاهم معه بعد أن كانوا يحسبون أنفسهم أقوى شعوب الأرض كافة ، وأنهم لهذا لا يتفاهمون مع أحد إلا بالسيوف .

وكان «زنبيل» ملك الترك رجلاً مُهاباً يتبعه مائة ألف سيف من الترك ، وكان يسيطر بقواته على كل البلاد الممتدة من نهر المرغاب الذى يجرى جنوبى خراسان ، موازياً لنهر جيحون فى مجراه ، وكانت لهذا الملك القوى قواعد شتَّى فى بلاد الترك مثل هراة وغزنة ، وكان قد غلب ملوك الترك أجمعين ، وقهر جيوش الصين أكثر من مرة ؛ حتى اضطر إمبراطور الصين إلى دفع الجزية له ، وبلغ من خوف الصينيين منه أنهم أعادوا بناء سور الصين حتى لا يستطيع الترك اقتحام البلاد عليهم .

وعندما سمع «زنبيل» أن قتيبة اقتحم عليه بلاده من الغرب أقسم لَيُؤَدِّبَنَّهُ وليأخذنَّه أسيراً ، فما كاد يلقاه أول مرة شمالى «مرو» فى غربى خراسان حتى فوجئ برجل لا يشبه فى شىء مَنْ عرفهم من الرجال . وجد رجلاً شابًا يقارب الأربعين من عمره ، ذا وجه وسيم وقامة عريضة وصوت جهورىّ . وأكثر ما أدهش «الزنبيل» من قتيبة طاعة رجاله له وتفانيهم فى تنفيذ ما يؤمرون به دون تردُّد ، يحفزهم على ذلك إيمان عميق بدينهم الإسلام ؛ فكان قتيبة إذا أمر رجاله بأن يستولوا على جبل مغطًّى بالثلوج سارعوا إلى تنفيذ ما أُمروا به ، ولا يلبث الجبل أن يقع فى أيديهم ويعلوه رجل منهم ويُكبِّر فيكبِّرون ثم يقيمون صلاتهم .

وحاول «الزنبيل» أن يَلْقَى قتيبة مرة ثم أخرى فما كان رجاله يطيقون الصمود للعرب إلا ساعة أو دونها ثم يُولُّون الأدبار .. وفى مرة من المرات

كاد يقع هو نفسه أسيراً فى يد قتيبة ، ومن أكثر ما بهره من حزم قتيبة وشجاعته أن الجيشين اصْطفَّا مرة للقتال ، ثم نُودى للصلاة ، فقام قتيبة ورجاله يصلُّون صلاة الحرب ، وفيها لا يتراجع الناس عن مواقعهم أمام العدو ، بل ينقسمون قسمين : قسماً يُصلِّى وقسماً يحرس . فإذا انتهى الأوَّلون من صلاتهم تَولَّوا الحراسة وصلَّى الآخرون . وفى ذلك اليوم أَبَى قتيبة إلا أن يُصَلِّىَ مع القسمين ليظهر للعدو أنه غير مكترث به ، ولا هَيَّابٍ منه . وقد دُهِشَ الترك وهم يرون أولئك الرجال يؤدُّون صلاتهم فى مواجهة العدو ، فأدركوا أنهم حِيالَ طراز جديد من الناس لم يعرفوه من قبل ، وتأكدوا من ذلك عندما وجدوا العرب بعد انتهاء صلاتهم يكرُّون على عدوِّهم على صهوات الخيل والسيوف بأيديهم فأزالوهم من مواقعهم فى دقائق ، ثم وضعوا السيوف بين أكتاف المنهزمين وأسَرُوا منهم ألوفاً . فلما تم النصر سأل قتيبة أولئك الأسرى إن كانوا يرغبون فى دخول الإسلام فأجابوا بالإيجاب فأطلق سراحهم وسُلِّمَتْ لهم سيوفهم ، وأعطى قتيبة كل من صلَّى منهم درهمين .

وكان «الزنبيل» قد هرب بعد تلك الواقعة إلى مخبأ له وسط الجبال فى بلاد الختل ، وهناك بلغته الأخبار ، فَعَلِمَ ألَّا طاقة له بهذا الرجل ، وانتابته الهموم ، وبينما هو فى ذلك ؛ إذا برسولٍ من قتيبة يأتيه ويعرض عليه الإسلام ويدعوه إلى أن يدخل مع قومه هذا الدين الحنيف ، فطلب «الزنبيل» من الرسول أن يُعَلِّمَهُ الإسلام ، وكان الرسول عالماً مسلماً جليلاً هو الضَّحَّاك بن مزاحم الذى يلقَّب بصاحب التفسير ، فلما سمع

«الزنبيل» كلام الضَّحَّاك شرح الله قلبه للإسلام فدخل فيه ، وأقبل قتيبة فلقيه عند «بلخ» وأصبح من رجاله وأتباعه . ولم يجد فى ذلك حرجاً ؛ لأن قتيبة كان مؤمناً صادقاً عرف كيف يعامل هذا الملك الذى دخل الإسلام معاملة تقدير واحترام وأخوَّة .

وظل قتيبة بعد ذلك سيد بلاد خراسان وبلاد الترك ، يغازى مَنْ عصا منهم ، وفى الفترة الأخيرة من ولايته (٩٤ - ٩٦هـ / ٧١٣ - ٧١٤م) دخل قتيبة أرض الصين من ناحية فرغانة واحتل كاشغر غربى الصين ، وأرسل الدعاة يدعون إلى الإسلام ، فانتشر الإسلام فى نواحى كاشغر وحوض نهر التاريم - وهو الآن جزء من ولاية سنكيانج فى غربى الصين ، وهى ولاية صينية إسلامية إلى يومنا هذا - .

وفى (جمادى الآخرة من سنة ٩٦هـ/فبراير ٧١٥م) تُوفِّى الوليد بن عبد الملك ، وخَلَفَهُ أخوه سليمان . وكان سليمان إنساناً ضئيلاً قميئاً يملأ قلبه الحقد على أخيه الوليد وكل رجاله الأبطال الذين فتحوا بلاد الترك ودخلوا الهند فى الشرق ، وأتموا فتح المغرب ثم فتحوا الأندلس فى الغرب ، فجعل هَمَّهُ مطاردتهم والإساءة إليهم ، فعزل محمد بن القاسم فاتح الهند ، وعزل موسى بن نصير وطارق بن زياد اللذين فتحا الأندلس. وأحسَّ قتيبة أن دوره قادم ، فأَبَى أن ينتظر حتى يعصف به هذا الخليفة الظالم المُسىء ، فأعلن العصيان على الخليفة ، وقرر أن يستقل بنواحى خراسان وما يليها جنوباً وشمالاً ، وحَسِبَ أن جنده سيؤيدونه ، وأرسل إليه «الزنبيل» يعلن استعداده للوقوف إلى جانبه .

وفى ليلة من ليالى ذى الحجة سنة ٩٦هـ / أغسطس ٧١٥م كان قتيبة فى معسكره خارج مدينة فرغانة ، وكان الرجل مطمئناً إلى رجاله ، فسهر معهم بعض الوقت يدبّر الأمور معهم ، ولكنه أحسَّ أن شيئاً ما فى معسكره قد تغيَّر .

ولم يكذب ظن قتيبة العظيم ، ففى هذه الليلة وصل دسيسٌ من قِبَل سليمان بن عبد الملك واتصل بوكيع بن أبى سود التميمىّ ، وأبلغه رسالة من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك يُقِيمُهُ فيها قائداً على جيوش الإسلام الفاتحة فى المشرق ، ويطلب إليه أن ينفصل هو ورجاله عن قتيبة ، وجعل يخوِّفه مغبَّة الخروج على طاعة خليفة الإسلام . وكان وكيع رئيس قبائل ربيعة ومُضَر والموالى ، فاستجاب وكيع لنداء الخليفة وأزمعَ الغدر بقتيبة العظيم .

فى هذه الساعة - بعد منتصف تلك الليلة من ذى الحجة سنة ٩٦ هجرية - تقرَّر مصير رجل من أعاظم رجال الإسلام .

فى الصباح اكتشف قتيبة الخيانة ، فخطب فيمن بقى معه من الرجال ، ثم وقع القتال واستبسل قتيبة على عهده ، ولكن سهماً أصابه فأرداه قتيلاً. وهكذا انتهت حياة قتيبة العظيم ؛ نتيجة لمؤامرة غادرة دبَّرها له الخليفة بلَيْلٍ .

كان قتيبة عندما قُتِلَ فى الثامنة والأربعين من عمره ، وقبره فى فرغانة بموضع يُسمَّى «رباط سرهنك» - أى : رباط القائد - ، بقرب قرية «كاخ» - أى : القصر - .

وقد اعتُبِرَ «قُتيبة» شهيداً ، ورثاه جرير الشاعر بقوله :

نَدِمْتُـمْ عَلَـى قَتْـلِ الأَغَـرِّ ابـنِ مُسلمٍ
وأَنْــتُـمْ إذا لاقَيْـتُـمُ اللَّـهَ أَنْـدَمُ
لَقَـدْ كُنْتُـمْ مِـنْ غَـزْوِهِ فـى غَنِيمَـةٍ
وَأَنْـتُـمْ لِمَـنْ لاقَيْـتُـمُ اليَـوْمَ مَغْـنَمُ

نهاية ثلاث وثلاثين سنة من الظلم والإرهاب

خلال السنوات الأولى من القرن العشرين كان العالم يعيش فى جو غامض مشحون بالأخطار : كانت الدول الكبرى قد تضخَّمت إلى حد أن ثلاثة أرباع المعمورة كان تابعاً لأربع دول منها هى بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية . وكانت هذه الدول لا تكتفى بحكم أراضيها ، بل كانت تتمسك بأن شيئاً لا يتحرك على وجه هذا الكوكب إلا بإذنها .

وفى هذا المجتمع غير الإنسانىّ الذى تكوَّن من سادة وعبيد فَحَسْبُ ، عاشت الدولة العثمانية العتيقة التى قطعت من العمر سبعة قرون : نصفها قوة وصعود حتى منتصف القرن السابع عشر ؛ والباقى هبوط وتفكُّك وانحلال بعد ذلك . وقد بلغ هذا الانحلال والتفكُّك أَوْجَهُمَا سنة ١٨٧٦م عندما خلف السلطان عبد الحميد أباه عبد المجيد ، وكان عبد الحميد إذْ ذاكَ شابًا فى الثالثة والثلاثين من العمر ، وقد تفاءل الناس بمقدمه ، وظنوا حكمه نهاية عصور الآلام وبداية عصور الآمال لدولة آل عثمان .

وبدأ عبد الحميد الثانى «خاقان البرَّين والبحرين وحامى الحرمين» بداية طيبة ، فأعلن عن إصلاحات واسعة ، وقال إنه سَيُنْشِئ فى دولة آل عثمان الواسعة - التى تشمل البلقان وبلاد العرب ككل عدا المغرب

الأقصى - حُكْماً ديمقراطيًا عادلاً ، وأنه سينشر الرخاء فى بلاده وسَيُسَوِّى بين رعاياه ، ويعود إلى حكم الإسلام ، وغير ذلك كلام كثير .

وبالفعل بدأ بإصدار «مجلة التنظيمات» أى : مشروع القانون المدنى الجديد ، وفيه الكثير مُقْتَبسٌ من القانون الفرنسى المدنى ، وأَذِنَ فى إقامة رقابة أوروبية على مالية الدولة لتسديد الديون ، ونظر فى أمر الجيش يريد تنظيمه ، ثم أعلن بعد ذلك دستوراً ينصُّ على الحريات ويقيم مجلس نواب تُمثَّل فيه كل جنسيات الدولة . واتجه فى حكمه اتجاهاً متحرراً حِيالَ العرب ، فخاطب العرب خطاب الأب الشفيق ، ودعاهم إلى التعاون معه وجعل لهم مكاناً كبيراً فى إدارة دولته .

* * *

ولكن ذلك كله كان خبثاً من عبد الحميد وتدبيراً خفيًا ، فقد كان الرجل يطوى بين ضلوعه قلباً من حجر ، وتكشَّف بعد قليل عن طاغية لم يسبق له مثيل فى تاريخ آل عثمان ..

ذلك أن هذا الرجل الذى بدأ حكمه بداية طيبة واتخذ له مستشارين من الأوروبيين والألمان خاصة ، لم يلبث أن أحس بالخوف على عرشه من مستشاريه ورعاياه على السواء ، فاستغنى عن المستشارين عدا الألمان، ثم ألغى الدستور وحَكَمَ الدولة بيدٍ ظَنَّها من حديد ، وأقام حكمه على الجاسوسية والقتل والإرهاب ، وثَقُلَتْ وطأته على الفلاحين فى بلاده وأملاكه ، فتهارب المزارعون من الأرض وقَلَّ وارد الدولة من المال ، ثم سار على طريقة إصلاحية تشبه طريقة الخديوى إسماعيل فى مصر ، أى:

تقوم على عقد القروض من الدول الأوروبية ومصارفها . وبالقروض أنشأ الرجل جزءاً كبيراً من السكك الحديدية الممتدة من الآستانة إلى البصرة ، ونفَّذ كذلك جزءاً كبيراً من سكة حديد الحجاز فوصل الخط إلى مكان فى جنوب الأردن . وأخذ يتقرَّب من الألمان تقرُّباً شديداً أخاف الإنجليز والفرنسيين . فبدأ التدبير عليه من الخارج والداخل ، وامتلأ قلبه رعباً..

ودفع الخوف بهذا الرجل إلى ارتكاب جرائم أعادت إلى الأذهان ذكريات طغاة العصور المظلمة . فأحاط نفسه بحرس كثيف ، وامتلأ قصره بالجواسيس حتى كان أهل القصر لا يجسرون على الكلام خشية أن يصل الخبر إلى السلطان فلا يكون هناك محيصٌ [1] من الموت. ولقد قُتِلَ فى أيامه مئات من أهل القصر ما بين رجال ونساء . واشتدت وطأته على الجيش وضباطه ، فقد كان يخشاهم خشية بالغة ، وكان إذا بلغته أى شبهة فى حق أى ضابط سارع رجاله فأخذوا الضابط المسكين وخنقوه ثم ألقوا جثته فى مياه البوسفور . وبلغ من كثرة مَنْ أُلْقِىَ فى مياه البحر من الضباط الأبرياء أن الأتراك أضربوا عن أكل الأسماك لأنها تتغذَّى على أبدان أبنائهم المساكين . واستمر الأمر على ذلك زمناً طويلاً . وبلغ من خوف هذا الرجل على نفسه أنه جعل فى قصوره نحو مائة غرفة نوم ، ينام كل ليلة فى واحدة منها دون أن يعلم أحد أين يكون !!

* * *

١- أى : مفرٌّ .

وتحت ستار الخوف أخذت تتألف فى الجيش جمعيات صغيرة من الضباط هدفهم تحرير بلادهم ، وعندما خاف هؤلاء الضباط من جواسيس السلطان انتقل رؤساؤهم إلى باريس وچنيف ، وهناك أعلنوا عن إنشاء «لجنة الاتحاد والترقِّى» والمراد توحيد بلاد الدولة العثمانية التى أوهنتها الثورات والخلافات ، والترقِّى يراد به التقدُّم ، أى : تخليص العثمانيين من أثقال التأخر والفساد . وأعلن أولئك الأحرار برنامجهم فقالوا إنهم يريدون بناء دولة عثمانية عصرية منظمة قوية . وقد أُنشئت هذه الجمعية أولاً فى چنيف سنة ١٨٩١م ، ثم انتقلت إلى باريس ، وعندما اشتد التأييد لها من جانب الجيش وأَمِنَ رجالُها على أنفسهم انتقلت إلى «سالونيك» سنة ١٩٠٨م . وكانت «سالونيك» مركزاً من مراكز الجيش الكبرى وفيها قاعدة عسكرية كبيرة ، ولم يجرؤ السلطان على إيذاء أعضاء لجنة الاتحاد والترقِّى لأن الجيش فى «سالونيك» كان يؤيدها .

وقد ضمت هذه اللجنة إلى جانب الضباط عدداً كبيراً من المحامين والأطباء ، وكان فيهم بعض اليهود ، لأن «سالونيك» كانت مهجراً من المَهَاجِر [1] الكبيرة التى انتقل إليها يهود إسبانيا الذين اضطهدهم الإسبان بعد خروج العرب بزمان طويل . وإلى هذا العنصر اليهودى فى تكوين لجنة الاتحاد والترقِّى يرجع السبب فى انحرافها عن الخط الإسلامى ، بل ترجع إليه نكبتها وفشلها فيما قصدت إليه على الجملة ؛ لأن اليهود عملوا على دفعها فى طريق الحقد والكراهية للعرب - الذين كانوا أفضل رعايا الدولة - وإلى مجافاة رجالها لبعض قواعد الإسلام .

١- المَهَاجِر ، أى : الأماكن التى هاجروا إليها .

وكان أكبر أعضاء هذه اللجنة «أنور بك» ، وهو ضابط شاب درس الفنون العسكرية فى برلين ، وعاد يتأجج صدره بالحب لوطنه والسخط على عبد الحميد ونظامه البغيض . وقد عُمِّرَ «أنور بك» طويلاً فشارك فى الثورة الكمالية ، وعاش بعد مصطفى كمال عمراً مديداً ولم يمت إلا منذ سنوات قلائل ..

ومنهم كذلك «طلعت بك» وكان ضابطاً أيضاً ، و«جاويد بك» وكان يهوديًا ماسونيًا دسيساً على الاتحاد والترقِّى .

وانتشرت دعوة الاتحاد والترقِّى فى صفوف رجال الجيش ، وانتقلت من «سالونيك» إلى الجيش الثالث المعسكِر فى مقدونية (مقدونيا) وإلى الجيش المعسكِر قرب الآستانة لحماية السلطان . ولم تلبث الجمعية أن أسفرت عن وجهها ، فأنذرت السلطان بالعزل إذا هو لم يغيِّر سياسته ، وطالبت بتنفيذ دستور سنة ١٨٧٦م – الذى كان عبد الحميد قد أعلنه بنصيحة مدحت باشا أول زعيم تركى من المصلحين – .

وتظاهر عبد الحميد بالإذعان لمطالب الأحرار ، فأعلن أنه سيعيد الدستور والبرلمان ، وأنشأ مجلس المبعوثين (أى : مجلس النوَّاب) ، واستعان بداهية مريب هو أبو الهدى الصيَّادى الذى جلبت نصائحه على السلطان المصائب والويلات .

وأعلن عبد الحميد أنه سينهى حكومة الجواسيس وقال إنه يؤيد الأحرار ، وأراد أن يُلْقِىَ الفتنة بين العرب والأتراك من رعايا الدولة فزاد من ميله إلى العرب وأعلن عن إقامة «الجامعة الإسلامية» ، وما إلى ذلك

مما لجأ إليه من حِيَلٍ لا يريد بها إلا المحافظة على عرشه والفرار من القدر المحتوم الذى كان يسير إليه .

وعندما اطمأن الرجل إلى أنه خدع الجميع ، عاد إلى عهده القديم، وأعلن تَوَقُّف هذه الإصلاحات كلها ، بل أوقف الدستور وحَلَّ البرلمان.

وكان عبد الحميد يفعل ذلك وهو يحسب أن قُوَّةً فى الدنيا لا تستطيع أن تمسَّ سلطان آل عثمان ، فهو حاكم بأمر الله لا يجرؤ أن يشير إليه أحدٌ ببنان [1] . ولكنه فى الحقيقة كان خائفاً لا يقرُّ له قرار ، وكان قد أمن إلى نفر من حرامه وجارية من جواريه كان شديد التعلق بها تسمَّى «جالما» أرمنية الأصل .

وعندما أيقن بأن رجال لجنة الاتحاد والترقِّى قد استقر رأيهم على عزله ؛ لجأ إلى جناح «جالما» فى القصر يتحصَّن فيه - حاسباً أن أحداً لا يعلم أين يكون - ..

ولكن «جالما» خانته ، كما تغيَّر عليه الآخرون ، وخانه كذلك خدمه وعبيده الأقربون .. فلما انقضى اليوم السابع والعشرون من أبريل سنة ١٩٠٩م ، وجاء الليل ؛ لجأ المسكين إلى حصنه الخفىّ ، واطمأن فيه ، وكانت عادته أن يصلِّى ركعتين قبل النوم ، وكان ينام فى منتصف الليل .

فلما نهض ليخلع ملابسه ويتوضأ سمع أصواتاً وَوَقْعَ أقدام ، فوقف واجماً ونظر إلى «جالما» وتساءل : ما هذا ؟ .. فقالت - وهى تتصنَّع الدهشة - : لا أدرى يا مولاى .

١- البَنَانُ : أطراف الأصابع . واحدته : بَنَانَةٌ .

وعرف أنها خانته ، ووقف واجماً لحظة ، وقبل أن يتحرك انفتح الباب فى عنف وظهرت جماعة من الضباط وقال مُقدَّمُهم :

- عبد الحميد خان .. إننا شعب تركيا نخلعك عن السلطنة والخلافة .

فاستمسك الرجل بشيء مما بقى له من شجاعة ، وسار خطوات نحو كرسى فجلس عليه وقال :

- أيها الضابط ، قِفْ معتدلاً أمام سلطانك .

- كنتَ سلطانى ، ولكنك الآن مخلوع .

- السلاطين لا تُخْلَعُ أيها الشاب ، لأنها تولد سلاطين ، وتموت سلاطين .

وأدار الضباط ظهورهم ومضوا ليبايعوا «محمد رشاد» (محمد الخامس)..

ونظر عبد الحميد فلم ير «جالما» ؛ وأدركه الخوف فنادى :

- أيها الضابط ، سأمضى معكم .. إننى غير آمن هنا .

هكذا كانت نهاية ثلاث وثلاثين سنة من الإرهاب فى منتصف ليلة السابع والعشرين من أبريل ١٩٠٩م .

الإيطالى الذى أسلم
بين يدى أبى العباس المرسى

حوالى سنة ١٩٢٨م وفدَ على مصر مهندس إيطالى شاب استدعته الحكومة المصرية للاستعانة به فى أعمال تعمير المساجد التى كانت تقوم بها وزارة الأوقاف فى ذلك الحين . كان اسمه ماريو روسّى ، وكان مهندساً معماريًا وعالماً أثريًا رغم سِنِّهِ الصغيرة . وكان الذى أشار باستدعائه إلى مصر مهندس إيطالى آخر عمل فيها فى أوائل العشرينات ، وهو الذى اشترك فى إعادة تعمير مسجد الإمام الحسين - رضى الله عنه - وبناء القسم الجديد من مبناه الذى يطل على ميدان المشهد الحسينىّ اليوم . وهذا المهندس الإيطالى هو المسئول عن الشبابيك القوطية الطراز التى تميِّز القسم الجديد من مبنى المشهد الحسينىّ ، ويمكنك أن ترى تلك النوافذ القوطية فى الواجهة المطلة على الميدان ، وخاصة تحت المئذنة التركية الطراز الجديدة ، وقد اشترك هذا المهندس فى بناء مسجد الرفاعى الذى تم بناؤه قبل ذلك بسنوات ليكون مدفناً لأفراد الأسرة المالكة فى مواجهة مسجد السلطان حسن بميدان القلعة.

ولكن ماريو روسّى كان طرازاً آخر من المعماريين .. كان رجلاً موهوباً ، وكان طويل الصمت والتفكير مغرماً بالبحث فى العمارة الماضية واكتشاف كنوزها وإنشاء عمارة جديدة على أساسها .

إلى جانب ما كانت الوزارة تكلِّفه به من أعمال ترميم وبناء ، مضى روسّى يزور المساجد القديمة التى كانت فى مصر وينقل كل ما فيها من نقوش إسلامية على ورق ، واستمر فى ذلك العمل سنوات طويلة أنشأ فيها مجموعات هائلة من اللوحات تحمل رسوم الزخارف ووحداتها وتحليلها الفنى والهندسى . هذه اللوحات ألوف موجودة الآن فى محفوظات وزارة الأوقاف المصرية ، وهى تُعَدُّ أعظم ذُخرٍ فنىٍّ عن العمارة الإسلامية فى مصر ، ولابد أن تُجمع الوزارة رأيها وتطبع هذا الذُخر النفيس ، ومهما بلغت تكاليف الطباعة فلابد من تحقيقها لأنها تحفظ لنا أشكالاً هندسية وزخرفية تلاشت الآن بفعل الزمن . ومن حسن الحظ أن لدينا أثريين وفنيين قادرين على القيام بهذا العمل ، وعدد منهم من تلاميذ روسّى مثل المهندس المعمارى المبدع على خيرت ، وهو من خيرة المعماريين الأثريين فى العالم العربى ، وقد قام ببناء عدد كبير من المساجد الحديثة التى تبنيها وزارة الأوقاف فى مصر .

* * *

وبينما كان ماريو روسّى يقوم بهذا العمل الجليل طلبت إليه وزارة الأوقاف أن يُعِدَّ مشروعاً لإعادة بناء مسجد وَلِىِّ الإسكندرية وحارسها أبى العبَّاس المُرسِىّ ، وهو فقيه ومتصوف أندلسى من مدينة «مرسية» بشرق الأندلس ، أتى إلى مصر واستقر فيها – فى الإسكندرية – ، ومضى يُعلِّم ويَعِظ حتى أصبح له أتباع ومريدون فى القرن الثالث عشر الميلادى .. وبعد وفاته أُقيم له ضريح كبير .. وكان هذا الضريح قد تَهدَّم ..

ونهض روسّى للعمل ، فعمل مشروعاً بديعاً لبناء المسجد يعتمد على الأصول والنماذج الفنية التى درسها ، وابتكر فى هذا المشروع عناصر معمارية جديدة مثل العُقد المدبَّب المستطيل إلى أعلى ، وأنت ترى نماذج جميلة من هذه العقود فى داخل مسجد أبى العبَّاس ، وخاصة فى رواق القبلة . ورواق القبلة هو الممرُّ بين الأعمدة الذى يؤدى من باب بيت الصلاة إلى القبلة وينتهى بالمحراب .

وفوق البلاطة - أى : المربع الذى يقوم أمام المحراب - أقام روسّى قُبَّةً رائعة رفعها على أعمدة من الرخام وعقود مستطيلة ، وتعتبر هذه القبة من أجمل قِبَاب المساجد المصرية الحديثة ، لأن رقبتها عالية مزيَّنة بالقِمْريَّات . والقمرية (بكسر القاف وسكون الميم) هى الشباك الصغير فى رقبة القبة أو فى أعلى جدار المسجد تُغَطَّى بالزجاج الملون أو الأبيض ، ووظيفتها إدخال النور إلى المسجد ، وخاصة بلاطة المحراب والقبلة .

وفوق رقبة القبة رفع روسّى القبة نفسها ، وهى من أجمل قباب المساجد فى مصر مزينة من الخارج بنقوش مملوكية الطراز ، أما مئذنة المسجد فلم يسترسل روسّى فى ارتفاعها ، بل جعلها متناسبة فى ارتفاعها مع مساحة المسجد وارتفاع القبة .

وبعد أن انتهى المسجد تبيَّن للناس أن روسّى قام بأجمل عمل معمارى دينى فى العالم الإسلامى منذ قرون طويلة ، وأصبح مسجد أبى العبَّاس المرسى موضع إعجاب المعماريين جميعاً ، واتخذوه أساساً لإنشاء المساجد الإسلامية الجديدة فى مصر والعالم العربى .

فى أثناء ذلك كان ماريو روسّى يقترب من الإسلام شيئاً فشيئاً .. تَنقَّل من دراسة الآثار الإسلامية إلى دراسة الإسلام ، فلم يلبث أن مال قلبه إليه ، فقد وجد فيه راحة النفس التى يَنْشُدُهَا منذ زمن طويل ، فدرسَ اللغة العربية حتى أتقنها ، وأخذ يقرأ القرآن فازداد حبًا للإسلام وقرباً منه . وعندما كلَّفته الدولة ببناء مسجد «المُنتزه» وضع له مشروعاً يفيض بالإيمان بالإسلام والحب له ، كما جاء مسجد المنتزه تحفة لا تضاهيها تحفة ، فقد وسَّع روسّى بيت الصلاة قدرَ ما استطاع ، وأنشأ للمسجد قبة ذات طراز جديد ، ورفع المئذنة فى الطول ، وأجمل ما فى هذا المسجد روحه الإسلامية الخالصة ، فأنت لا تشك وأنت تتأمله أن الذى أنشأ مثل هذا العمل لابد أن يكون مسلماً عميق الإيمان.

بعد ذلك أنشأ روسّى مسجد محطة الرمل فى الإسكندرية ؛ فابتكر فيه ابتكارات بديعة ، أظهرها للعين هى تلك المئذنة العالية التى لا مثيل لها فى المآذن المصرية . وقد تعمَّد روسّى أن يطيل المئذنة ، لأن المسجد يقوم فى ميدان تحيط به العمائر العالية ، وكان لابد للمئذنة من أن تضاهيها فى الارتفاع ، وقد وُفِّقَ روسّى فى ذلك بطريقة بديعة لا تُخِلُّ بجمال المئذنة أو توازنها .

وبنى روسّى مساجد أخرى غاية فى الجمال ، نذكر منها مسجد الزمالك المشرف على نهر النيل فى القاهرة ؛ وهو من أجمل ما بناه ، ثم مسجد عمر مكرم فى ميدان التحرير ؛ وهو أقل المساجد التى بناها جمالاً ، ربما لأن

سِنَّهُ كانت قد كبرت ولم يعد قادراً على أن يأتى بالإبداع الذى تعوَّدناه منه فى الماضى .

فى أثناء ذلك كان الإسلام قد تمكَّن من قلب روسِّى تماماً .. كان لا يملُّ قراءة القرآن والجلوس إلى الشيوخ . وفى ذات ليلة كان يتمشى على شاطئ البحر فى الإسكندرية ، ثم توجَّه إلى مسجد أبى العبَّاس ، وسأل عن شيخ المسجد فأتاه ، فقال له :

- أريد أن أعتنق الإسلام .

ونظر الرجل إليه فى شىء من الدهشة ، ولكنه رأى فى وجه هذا الإيطالى إيماناً بالغاً ؛ فقال له : لابد لنا من شهود .. لنجعلْ ذلك بعد صلاة العشاء .

وانقضت صلاة العشاء ، فلما انصرف الناس أقبل الشيخ ومعه صاحبان له ، وفى صحن المسجد أعلن روسِّى إسلامه وقرأ القرآن ، ثم قام فصلَّى مع الشيوخ صلاة شكر لله ، ثم قال لهم إنه يريد أن يقضى بقية الليل فى المسجد .

كان ذلك فى منتصف ليلة من ليالى مايو سنة ١٩٤٦م ، لم يحددها لى مَنْ روى الخبر ... قام روسِّى على قدميه فصلَّى لله ، ثم جثا على ركبتيه ودعا الله دعاءً طويلاً ، وترحَّم على أبى العبَّاس - وَلىِّ الإسكندرية وحارسها - .

البطل الذى ولد مع طلوع الشمس
ومات مع طلوع الشمس

هذا هو ختام هذه السلسلة من الأحاديث التى تخيَّرناها مما وقع فى منتصف الليل أو قربه ، ويبدو أن معظم الحوادث الكبرى تقع فى الليل أو تُرتَّب أمورها فى الليل ، لأن هدوء الليل وصمته وسواده يغرى بالتفكير والتدبير . والقدر نفسه يُجرى الكثير من مآسيه وأحداثه فى سواد الليل ، وصدق الشاعر حيث قال :

يَـا نَائِـمَ اللَّيْـلِ مُغْتَـرًّا بِأَوَّلِـهِ

إنَّ المَصَائِبَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَارَا

ختام أحاديثنا هو مسك الختام ، وأى مسك هو أطيب من سيرة نور الدين محمود البطل المجاهد العامل على توحيد جبهة الإسلام تمهيداً للقضاء النهائى على الصليبيين فى الشام ، وقبل أن يموت كانت الراية قد انتقلت إلى مجاهد آخر من رجال نور الدين هو قائده وتلميذه صلاح الدين يوسف بن أيوب (صلاح الدين الأيوبى) .

منذ أوائل سنة ٥٦٩هـ / أغسطس ١١٧٣م أحسَّ نور الدين أن الوقت قد حان لكى يجمِّع قواته ويضرب الصليبيين الضربة القاضية . كان قد وُفِّقَ إلى ضَمِّ مصر إلى جبهة الجهاد على يد قائده العظيم أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين . كانت سِنُّهُ إِذْ ذاك ثمانىَ وخمسين سنة ، وهى سن عالية

فى تلك العصور . وكان يعرف أن الصليبيين لن يهدأ لهم بال - وقد وحَّد نور الدين عالَم العرب من الموصل إلى مصر - ؛ ولهذا فقد كان معجِّلاً يريد أن يتوِّج عمله بالنصر العظيم ، ولكن نائبه فى مصر يَتلكَّأ لأن له أسلوباً آخر فى العمل ، وكان نور الدين لا يرى رأى واليه ، بل كان يريد منه أن يجمِّع كل قواه ويسير إليه لتتحد قواهما للقيام بالعمل العظيم .

ولم تلبث الحوادث أن صدَّقت ظنه ، فها هم الفرنجة يُقبلون من صقلية بحملة ضخمة على الإسكندرية .. جاءوا بثلاثين ألفاً ما بين فارس وراجل ، ومعهم مائة سفينة حربية من النوع الذى يسمَّى «شينى» - أى: يحمل كلٌّ منها مائة مقاتل - ، وست سفن كبار وأربعون مركباً ، ونزلوا بالإسكندرية وأرادوا اقتحام أسوارها ، ولكن أهل الإسكندرية ثبتوا لهم ثباتاً عظيماً . يقول بدر الدين بن قاضى شهبة فى كتابه «الكواكب الدرية فى السيرة النورية» : «فرأى الفرنجة من شجاعة أهل الإسكندرية ما راعهم .. ثم أسرع إليهم صلاح الدين فأَجهز على بقية الفرنجة ، وعاد مَنْ نجا منهم إلى صقلية مغلولاً بعد أن قتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة وأَسروا عدداً كبيراً ..».

لم يبقَ عند نور الدين - بعد ذلك - شك فى أن السرعة فى العمل واجبة فأرسل فى رمضان سنة ٥٦٩هـ كاتباً ليعمل حساب أموال مصر مع صلاح الدين ، لأن الحرب تحتاج إلى مال كثير ، وغضب صلاح الدين أولاً ثم قدَّم الحساب . وفى أواخر رمضان طلب نور الدين إلى كل رجاله

وولاته أن يستعدُّوا ويحشدوا حتى يَشْرَعَ فى الاستعداد الأخير للعمل بعد انقضاء رمضان .

وأقبل فى أثناء ذلك يتسلَّى بلُعبته المحببة إلى نفسه ، وهى «الصوالجة» - أى : لعب الكرة على صهوات الخيل - ، وأعلن أنه سيقيم حفل ختان ولده الصالح إسماعيل أثناء أيام عيد الفطر ، فأخذ الناس فى الاستعداد لذلك .

ومن أوائل شوال شعر نور الدين بتغيُّر فى مزاجه ، ثم ثقل جسمه ولم يعد يستطيع الركوب ، فرقدَ فى غرفة كان يأوى إليها فى قلعة حلب ، وكانت غرفة خالية من الأثاث ليس فيها إلا فراش على الأرض ، ولكن نور الدين كان ملكاً زاهداً ، فلما نصحه أصحابه بأن ينتقل منها إلى مكان أفضل أنكر منهم ذلك ، وظل حيث أراد الله له أن يكون ..

ونصحوه بالتداوى فرفض ، وأشار عليه أحد أحِبَّائِه بالفَصْد فلم يَقبل. وعندما اقترب العيد كانت العِلَّة تتزايد به ، واشتدت به عِلَّة «الخوانيق» وهى ما نسمِّيه اليوم بالالتهاب الرئوى ، وزادت به شيئاً فشيئاً .. واشتدت به الحُمَّى أول أيام عيد الفطر ، وتَوجَّسَ الناس شرًّا ، وتوقفت الاستعدادات لختان ابنه .. ومع المساء لم يعد يستطيع الكلام ، فصلَّى العشاء بعينيه ، ثم دخل فى غمرات الموت مع منتصف الليل . وفى الفجر ، فى وقت طلوع شمس الأربعاء (الحادى عشر من شوال ٥٦٩هـ / ١٥ مايو ١١٧٣م) أسلم المجاهد الجليل الروحَ وهو فى الثامنة والخمسين من عمره .

ومن غرائب الاتفاق أن نور الدين ولد عند طلوع الشمس أيضاً فى يوم الأحد السابع من شوال ٥١١هـ ، فكأنه ولد مع طلوع شمس الجهاد والوحدة الإسلامية ، وودَّع الدنيا مع طلوع شمس النصر الحاسم وتحرير وطن العرب من نكبة الصليبيين .

الفهرس

المحتويات	صفحة
* مدخل	٧
* بين يدى هذا الكتاب	٩
– آخر يوم فى حياة أحمد شوقى	١٥
– خيانة أبى البسام	١٩
– موت السلطانة ممتاز محل	٢٣
– آخر خلفاء بنى أمية فى الأندلس	٢٧
– مقتل السلطانة شجر الدر	٣١
– ابن خلدون يفرغ من «المقدمة»	٣٥
– مصرع المتوكل	٣٩
– مصرع الخليفة العباسى «الهادى»	٤٣
– الهجرة	٤٧
– بيعة العقبة الثانية	٥١
– حمراء الأسد	٥٥
– متعوس يحتفل بمتعوس	٥٩
– نهاية غير عادلة لرجل عادل	٦٣

- الغازى مراد الأول ٦٧
- أوسترليتز (٢ ديسمبر ١٨٠٥م) ٧١
- بيت حاسم من الشعر ٧٥
- لمحة عبقرية جلبت على الإنسانية خيراً عميماً ٧٩
- عِبرة وفاة أمير عظيم ٨٣
- هكذا كانوا يَصِلُون إلى العرش ٨٧
- وكيف ينام مَنْ قتل ألف رجل غدراً ؟! ٩١
- ميلاد الثورة الفرنسية ٩٥
- المقريزىّ يؤلف كتاباً كاملاً فى ليلة واحدة ٩٩
- لقاء مع امرأة أجنبية ١٠٣
- هكذا يُصنع السلاطين ويُحطَّمون ١٠٩
- انقلاب ١٨ برومير/ ٩نوفمبر ١٧٩٩م وانفراد نابليون بالحكم فى فرنسا . ١١٣
- شاعر يقتل شاعراً ١١٧
- ميلاد الثورة الروسية ١٢١
- مَنْ قتل لوركا ؟ ١٢٥
- سيدة صالحة تنشئ أقدم جامعة إسلامية ١٢٩
- جريمة بشعة فى سبيل العرش ١٣٣

- فى سواد الليل دبَّروا مصرع «قُتيبة» الفاتح العظيم.................. ١٤١
- نهاية ثلاث وثلاثين سنة من الظلم والإرهاب ١٤٧
- الإيطالى الذى أسلم بين يدى أبى العبَّاس المرسى...................... ١٥٥
- البطل الذى ولد مع طلوع الشمس ومات مع طلوع الشمس .. ١٦١
* الفهرس ١٦٥